دكتور صابر عبد الدايم

من القيم الاسلامية

فى الأدب العربى

فى العصرين الأموى والعباسى

دراسة تحليلية

الطبعة الثالثة

الاهداء :

● ● ● إلى والدى :

ـ الذى علمنى حب الإسلام .. سلوكا وشعوراً

ـ وقيماً تُجمل وجه الحياة ؛

ـ وتعيد إلى الذات نقاء الخطا وصفاء الوجدان .

صابر عبد الدايم

بسم الله الرحمن الرحيم

■ ■ ■

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين . أفصح العرب لسانا ، وأصدقهم بيانا ، وأصفاهم جَنانا . القائل :

« إن من البيان لسحرا . وان من الشعر لحكمة »

وبعد :

فإن النقاد درجوا على تقسيم العصور الأدبية تقسيمها تاريخيا تبعا للحكم السائد . وبخاصة بعد مجىء الاسلام .

فالفترة التى تسبق البعثة الإسلامية تسمى بالعصر الجاهلى وهى يمكن أن تقسم إلى مراحل متعددة ، تقسيما فنيا أو زمنيا أو بيئيا .

وقد اتسمت هذه الفترة بصراعات مختلفة عمقت وعى الناس فتمسكوا بالأرض وتقاتلوا من أجلها ، وتنافسوا فى المكرمات وعقدو المناظرات وكانوا فى بحث دائب عن الحقيقة العليا ، وجاء الاسلام لينقذهم من هذه الحيرة وذلك التنازع فوحدهم بعد شتات ، وهداهم بعد ضلال .

وفى عصر النبوة وزمن الخلفاء الراشدين ينحسر المد «الشعرى» وتتغير صورته التقليدية لأن الشعراء الذين عاصروا فترة ما قبل الإسلام لم تسعفهم الموحيات التقليدية القديمة لأنها زالت . فالحروب لم تعد قبلية وانما أصبحت بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، والفخر لم يعد بالآباء والأجداد ، وإنما أصبح بما ينطوى عليه القلب من شجاعة وصفاء ، والنفس من ورع ووفاء ، والعقل من توقد ومضاء .

والمرأة لم تعد فراشا يُستباح ، أو دميةً يُتَلَهَّى بها ، أو عبئا على المجتمع فتوأد خشية الإملاق ، وهربا من العار وانما رد لها الإسلام كرامتها وكيانها . فلم تعد تورث أو توأد بل شاركت فى صنع المجتمع الجديد وأعطاها القرآن قيمتها الإنسانية التى فقدتها فى العصور السابقة .

كل القيم السابقة مثلت تجارب جديدة كان على الشعراء أن يعايشوها أولا . ويتمثلوها ثم يُعَبِّروا عنها وفاجأهم القرآن بإعجازه المبين ، فأنكره الجاحدون لمرض فى نفوسهم وعجز فى عقولهم ، ونقص فى تكوينهم .

وتعلق به المؤمنون ، فوقفوا يتأملون أسلوبه الرصين ، وآياته البينات ، وكأنهم نظروا إلى نتاجهم نظرة فاحصة فوجدوه باهتا خافتا أمام وهج البيان القرآنى العظيم ، وصدق الحق سبحانه فى قوله «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . لايأتون بمثله . ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» «الاسراء آية : ٨٨»

وقد تداول النقاد خطأ هذه المقولة :

(الشعر يضعف فى الخير ويقوى فى الشر)

إنه خطأ فنى وتاريخى جسيم . لأن الشعر له وظيفته الحقيقة فى تقويم الحياة ، ورصد التجارب الاجتماعية والتحولات الفكرية والتطلعات لمستقبل كريم . إنه ميزان شخصية الأمة ، ومقياس نضجها ، وأى انحراف به عن هذه الوظيفة يبعده عن وظيفته الأساسية ، فالنفوس التى رباها الاسلام وكوَّنها . تظل بمنأى عن العطب الذى يصيب النفوس . التى افسدها الالحاد وهزتها النكبات ، ودمَّرها القلق .

ولم تختمر هذه القيم فى نفوس الشعراء وتتجسم فى تجاربهم بالصورة الفنية الكاملة إلا فى العصر الأموى . حيث وضحت الشخصية الإسلامية فى شعر الكميت بن زيد الاسدى وقطرى بن الفجاءة ، والفرزدق وجرير .. وسرى المعجم الإسلامى فى الشعر حتى فى قصائد الغزل ، كما فى شعر عمر بن ابى ربيعة وشعر عبد الله بن قيس الرقيات . وغيره من الشعراء . وبخاصة شعراء الفرق السياسية الإسلامية فهؤلاء

عبروا عن عقيدتهم تعبيرا وجدانيا صادقا انطلاقا من موقف ملتزم تجاه مايؤمنون به برغم مايشوب بعض هذه التصورات من انحراف احيانا عن التصور الإسلامى الصحيح .

وفى مقدمة هؤلاء الشعراء يأتى شعراء الشيعة ويتميز شعر الشيعة بمميزات خاصة تميزه عن بقية شعر الفرق الأخرى وأولى هذه المميزات أنه شعر كثير استطاع أن يواكب أحداث الشيعة جميعها مما يجعله بمثابة وثيقة تاريخية ، كما أتيح له أن يعبر عن أغراض مختلفة اتخذها الشيعة وسيلة إلى تحقيق هدفهم ، كما قرر حقيقة مذهبهم بكل تفاصيله مما يجعله وثيقة مذهبية جليلة الخطر ولاسيما انه يكمل أحيانا بعض أفكارهم التى لاتكاد نجدها بتمامها فى كتب الفرق[١]

وفى مقدمة شعراء الشيعة «الكميت بن زيد الاسدى ، وكثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة ، ومن شعراء الشيعة المغمورين «عبد الله بن الحر» وسليمان بن قته وعبد الله بن كثير السهمى وحرب بن المنذر بن الجارود ، والاشتر النخعى وأبو الاسود الدؤلى .

وشعراء الخوارج لهم دور لاينكر فى إثراء التجربة الإسلامية فى الشعر الأموى ، وقد حملوا السيف والقلم . وكانوا من الشعراء الفرسان ، وفى مقدمتهم «عمران بن حطان وقال عنه الجاحظ فى «البيان والتبين» ومن خطباء الخوراج وعلمائهم ، ورؤسائهم فى الفتيا ، وشعرائهم «عمران بن حطان»

وقال «ومن علمائهم وشعرائهم وخطبائهم» حبيب بن حذرة الهلالى .

ومن شعرائهم أيضا «يزيد بن حنباء ، وعمرو القنا ، وعبيدة بن هلال اليشكرى والصلت بن مره ، وأشهر هؤلاء الشعراء «قطرى بن الفجاءة» وهو «يعد أصدق صورة للفارس العربى المسلم فى القرن الأول الهجرى»[١] ولاننكر ان الخوارج قد بالغوا فى مواقفهم وتطرفوا فى احكامهم .. وبرغم ذلك كان شعرهم ترجمة صادقة لكفاحهم .

وفى مقدمة شعراء «الزبيريين» نجد ابن قيس الرقيات «وابو وجزة الاسلمى المعروف «بالسعدى» ، والنابغة الجعدى ، ولم يكن لهذا الحزب شعراء كثيرون .

---

(١) الفرق الاسلامية فى الشعر الاموى ص٣٨٧ د/ النعمان القاضى .
(٢) السابق ص ٦٢٩ .

وفى العصر العباسى الأول[١] «ضحى الاسلام» نلمح تغييرا كيفيا فى كل شىء حيث زاد اختلاط العرب بالأعاجم أكثر من ذى قبل ، لأن عملية الامتزاج بين الأمم الفاتحة والمفتوحة بدأت من عهد عمر بن الخطاب وكان من نتائج هذا الامتزاج فى العصر العباسى ، «أن كل جنس بدأ يتعلم من الأجناس الأخرى ما يشعر بأنها آخذة منه بحظ أوفر . فالعربى يأخذ من الفرس والرومان حضارتهم ، والفرس تأخذ من العرب الدين واللغة وهكذا[٢]

ومن المحقق أن الثورة العباسية لم تكن ثورة على العروبة من حيث هى عروبة ، وانما كانت ثورة على الأسرة العربية الحاكمة التى لم تكن تعترف بمبدأ المساواة بين جميع المسلمين عربا وغير عرب فى الحقوق - خارجة بذلك على نظرية الاسلام التى تنص على هدم العصبيَّة القبلية والجنسية فى مثل قوله : (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) . (انما المؤمنون إخوة) .

وقول رسوله الكريم فى خطبة الوداع :

(لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى)

والعصر العباسى الأول كما حدده المؤرخون يبدأ من سنة ١٣٢ هـ وينتهى فى سنة ٢٣٤ هـ وكان أبو العباس السفاح أول خليفة عباسى . وكان آخر الخلفاء الامويين مروان بن محمد الذى حاربه عبد الله بن على ثم أبو العباس السفاح .

- وهزمه هزيمة ساحقه فى موقعة «الزاب» شمال العراق وقد هرب مروان إلى مصر ببقايا جيشه فأرسل وراءه عبد الله اخاه صالحا . وظل مروان يفر أمامه من بلدة إلى بلدة حتى لقى حتفه فى بوصير من بلدان الصعيد سنة ١٣٢ للهجرة .

- ومن أهم أعلام الشعراء فى ذلك العصر :

البحترى ، وبشار ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، ومسلم ابن الوليد ، وأبو العتاهية وبعض الشعراء فى هذا العصر نصبوا أنفسهم للدفاع عن الدعوة العباسية ومنهم أبو دلامه ، مروان بن أبى حفصة ، مسلم الخاسر .

ومن شـعراء الشـيعة : السيد الحميرى ، منصور النمرى ، دعبل الخزاعى . ديك الجن .

ومن شـعراء الهجـاء : أبو عينيه المهلبى ، عبد الصمد ابن المعذل

ومن شـعراء الغـزل : العباس بن الاحنف ، ربيعة الرقى

(١) احمد أمين : ضحى الاسلام ، ص ٢ .

(٢) د/ شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٩٥ .

ومـن شـعـراء المجـون والزندقـة	:	حماد عجرد ، مطيع بن اياس ، صالح بن عبد القدوس
ومن شعراء الزهد	:	عبد الله بن المبارك ، محمد بن كناسه ، محمود الوراق
ومن شعراء الاعتزال	:	العتابى ، بشر بن المعتمر ، النظام
ومن اعلام الكتاب	:	ابن المقفع ، سهل بن هارون ، أحمد ابن يوسف ، عمرو بن مسعدة وابن الزيات[1]

(٤)

وعلى الرغم من اختلاف النزعات الشعرية فى هذين العصرين وتباين تجارب الشعراء فإننى سأختار بعض النصوص التى تتضح فيها الروح الاسلامية وتمثل تطلعات الشخصية الاسلامية إلى تأكيد ذاتها وفرض وجودها واتساع الرقعة الاسلامية ، وذلك اتجاه قومى حرى به أن يدفع المسلمين فى عصرنا الحاضر إلى استلهام تراثهم والبحث عن هويتهم والعمل على استقلالها . حتى تعود كما كانت . عزة لاتهادن ، وشجاعة لاتجور ، وعزما لايخور وحضارة لاتبلى

«ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .. ولكن المنافقين لايعلمون»

- وحين نحاول ان نستشرف آفاق الأدب ونقف على حدود الدائرة التى يتحرك فيها هذا الأدب .. وهى دائرة تسع هذا الوجود كله ولا تحدُّ من منطلقات النفس الانسانية وهى فى طريقها للسمو والارتقاء .

نجد ان المصطفى عليه الصلاة والسلام يقول محددا موقفه من الأدب بعامة ومن الشعر .. الذى يتفق ومنهج الاسلام فى الحياة

«إن من البيان لسحرا .. وإن من الشعر لحكمة»

فالشعر الذى يفتح مغاليق النفوس ، ويداوى امراض القلوب ، ويصلح ما اعوج من سلوك الانسان ، ويقيم جسور الثقة والطمأنينة بين الانسان والحياة هذا الشعر ثمرته الحكمةُ السديدة التى تنبثق اشعتها من العاطفة المتزنة والوجدان الصافى والسريرة النقية ، ولامكان للخداع أو للنفاق فى دائرة هذه الحكمة التى هى من عطاء الخالق ومن منح الوهاب .

---

(١) لمزيد من الايضاح والتفصيل ارجع الى كتاب « العصر العباسى د/ شوقى ضيف » .

يقول سبحانه فى سورة البقرة : «يؤتى الحكمة من يشاء . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر الا أولوا الالباب»

«سورة البقرة»

- وقد قبل النبى صلى الله عليه وسلم الشعر المنطلق فى آفاق هذه الحكمة ، ومواقفه المتعددة فى هذا المجال واضحة لاتحتاج إلى تنويه ، فقد قال عن بيت طرفه بن العبد - وهو جاهلى - هذا من كلام النبوة

يقول طرفه :

«ستبدى لك الايام ماكنت جاهلا .. ويأتيك بالأخبار من لم تزود»

- وقد أعجب النبى عليه السلام بشعر النابغة الجعدى وقال له : لايفضض الله فاك
- وقال عليه السلام عن شعراء الدعوة الاسلامية وهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه ، هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل
- وقال لحسان بن ثابت «أهْجُهم - يعنى قريشا - فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام اهجهم ومعك جبريل روح القدس ، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات»

«العمدة لابن رشيق ح ١ ص ١٢»

- وفى القرآن أروع نموذج للتأمل الخلاق المثمر فى ظواهر الكون وبواطنه . وفى النفس الإنسانية والحياة والبقاء والعدم ، وكل مايموج به الوجدان البشرى من انفعالات .

والتأملات القرآنية لها اتجاهات عديدة تمثل آفاقا ممتدة لم يلتفت اليها الأدباء ، والشعراء العرب القدامى ، فعجزوا عن الإتيان بأدب إسلامى متميز ينطلق من الآفاق القرآنية التى تعد أعلى نموذج يحتذى فى روعة الأسلوب وتنوع الطرائق التعبيرية ، ومن هذه الاتجاهات :

أولا : لفت الأفكار والعواطف إلى المشاهد الكونية ، وذلك يتمثل فى الدعوة إلى التفكير فى خلق السموات والأرض وما فيهما من نبات وحيوان ونجوم وكواكب ورياح مسخرة بينهما ..

ثانيا : الأمثال التى يضربها الله للناس :

وأحرى بالادباء والشعراء أن يتأملوا جميعا حصاد عمل الكفار فى سورة النور ، وسوء العاقبة الذى لحق بأهل القرية الذين فسقوا فيها فحق عليهم القول ،

وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، وقصة التحدى التى تنبىء عن عجز الكفار عن خلق الذباب . بل وانتصار الذباب عليهم

ثالثا : القصص القرآنى ، وهو يرمز إلى معان سامية ، ويفتح آفاقا رحبة للمعرفة الإنسانية والوقوف على خصائص النفس البشرية

- فالعالم الإنسانى الذى تموج به قصة يوسف هو فى قمة المتعة والثراء والتأمل
- والجو الرائع المدهش الذى يحيط بقصة آدم يطلق ملكات الإنسان الابداعية ويحفزه إلى التأمل .. والتعمق والاحساس العميق بلب الاشياء لا بقشورها وطلائها ،
- وجو العظمة والرهبة الذى تعبق به قصة سليمان وداود ، حيث تتحدى الحقائق كل خيال ، وتجد العقول والعواطف مسرحا لرياضة ذهنية وجدانية تتأمل من خلالها هذه الاجواء الخلابة التى لايمكن للشعر الخارج عن دائرة الحكمة الالهية أن يرقى إليها فى أى عصر من العصور .
- وقصة أهل الكهف ، وقصة موسى وعيسى وغيرها تشير إلى مكانة الآفاق التأملية فى القرآن الكريم ، وهذا التأمل القرآنى يقود العقل والقلب إلى مرفا اليقين وصواب المعتقد ، ولايحطم داخل الانسان ويشعل فى اعماقه حرائق الشك ويفجر براكين الالم والسأم
- فالإسلام لم يكن عائقا للشعر عن مسيرته - كما شاع خطأ - ولم يحجر الإسلام على الناس سماع الشعر أو انشاده وانما الشعراء هم الذين ظلوا متمسكين بالنهج القديم فى القصيدة العربية شكلا ومضمونا ولم تتفتح مداركهم لما فى القرآن العظيم من إشراقات ورموز وأساليب جديدة وايحاءات ثرية تظل جديدة معطاء برغم تعاقب الازمان وتغير البيئات وتلون المشاعر وتبدل الافكار ..
- وهذا الكتاب محاولة متواضعة لابراز أثر الاسلام فى تشكيل التجارب الشعرية عند الشعراء العرب وبخاصة فى العصر الاموى .. والعباسى الأول وآثرت أن تجىء هذه المحاولة فى صورة نقدية تطبيقية لأن البحوث النظرية فى هذا المجال يعوزها التطبيق ..
- ولاأدعى ان النصوص التى قمت بتحليلها هى النماذج المثلى أو الوحيدة فى هذا المجال . فالنماذج كثيرة .. وهى على كثرتها لم تعط صورة كاملة لأبعاد الرؤية الشعرية الاسلامية ويكاد يقتصر تأثر الشعراء بالنبض الاسلامى على المعانى الجزئية والمفردات التى استحدثت فى البيئة الاسلامية الجديدة ..
- اما القسم الاول من الكتاب فيتضمن اربعة نماذج أدبية من العصر الأموى
- والنموذج الأول قصيدة «رسالة إلى الاميرة» لعمر بن ابى ربيعة وهذه القصيدة

تسلط اضواء فنية جديدة على شاعرية عمر بن ابى ربيعة فى ظلال الاسلام . وتبين كيف ان الحب .. فى المنظور الاسلامى له قيمة روحية سامية .. تنأى به عن المفهوم الحسى القاصر .

- والنموذج الثانى : قصيدة الفرزدق فى مدح على زين العابدين بن الحسين وهى تركز على ملامح الشخصية المسلمة وترصد ابعادها الحسية والروحية والاجتماعية ، وتوضح اثر المعجم الاسلامى فى تشكيل التجربة الشعرية ..
- والنموذج الثالث : قصيدة الحب والموت لجرير فى رثاء زوجه وهى توضح لون العاطفة فى ظل الاسلام . عاطفة الوفاء والحب والصدق وتركز على رؤية الشاعر لابعاد العلاقة الزوجية واحساسه الكونى بها فى ظلال العاطفة الاسلامية الصادقة الهادئة المتزنة وفلسفة الجمال فى الاسلام تمثله هذه التجربة الشعرية خير تمثيل كذلك نستخلص من هذه التجربة ملامح شخصية المرأة المسلمة وموقف الرجل المسلم منها حبا ووفاء وتقديرا فى صورة فنية دقيقة معبرة تشهد للشاعر بصدق التجربة ونضوج الرؤية واكتمال الاداة .
- والنموذج الرابع : خطبة البتراء لزياد بن أبيه . وهى تؤكد مواكبة النثر الفنى لاحداث التغيرات فى البيئة الاسلامية وترسم الطريق الامثل لاقامة الحياة المسلمة الكريمة
- أما القسم الثانى : فيتضمن ثلاثة نماذج :
- النموذج الاول قصيدة لمروان بن ابن ابى حفصة « فى مدح المهدى » وهى تجربة برغم روحها التقليدية تطلعنا على الصورة المثلى للقائد المسلم والحاكم العادل وتجليل القصيدة ينزع إلى تصحيح الفكرة المخطئة التى كونها المحدثون عن صورة المدح فى الشعر العربى .. فهو وان لم يكن صورة صادقة للواقع فهى صورة متوقعة للمستقبل أو هو امال يرسمها الشعراء ويحلمون بتحقيقها فى أى عصر يحتمى بالاسلام ويلوذ بالعقيدة.
- النموذج الثانى يجسد قيمة كبرى فى الحياة الانسانية .. وهى قيمة الصداقة وللصداقة فى الاسلام دور كبير .. وقد استطاع ابو تمام فى هذا النموذج ان يحول هذه القيمة إلى عواطف جياشة وانفعالات حادة وهو بهذا يطوع الشعر إلى التعبير عن أرقى العواطف الانسانية فى ظلال عاطفة إسلامية تقدر قيمة الصداقة وتعرف حق الصديق .

● النموذج الثالث وصايا وحكم «لعبد الله بن المقفع وهذه الوصايا خلاصة تجاربه فى الحياة والثقافة وعصارة ذهنية مركزة .. وهى صدى لذلك الامتزاج الثقافى الذى حدث بين الثقافة الفارسية والثقافة الاسلامية .. وهذه الوصايا والحكم لاتبتعد عن منهج الاسلام فى الحياة برغم ان عبد الله بن المقفع لم ينطو وجدانه على عاطفة اسلامية صادقة ولكن اثاره وبخاصة هذه الوصايا والحكم لاتخرج عن دائرة المفاهيم الاسلامية .

والمنهج النقدى فى تحليل النصوص السابقة يقوم على استبطان النص ومحاولة الولوج إلى عالمه الداخلى .. مع الاتكاء على الخصائص الصوتية والجمالية . واستنطاق الكلمات والتراكيب والوقوف على مابين الأصوات ومدلولاتها من ألفة وانسجام ومحاولة الوصول إلى الإشعاعات التى تنشأ عن مقدار ماتتحمله الكلمة من طاقة إيحائية ، وماتتفجر عنه العبارات وماتوحى به الصياغة من معان وأبعاد ممتدة ، وماتثمره العلاقات اللغوية والأساليب النحوية من آفاق جمالية تكسب التجربة خصوبة وحيوية وعمقا وصدقا وانسجاما وتآلفا

وهذا المنهج النقدى لايغفل موقف الشاعر من الزمن ، فهذا الموقف الفنى فى صياغة التجارب الأدبية يحدد مسار هذه التجارب ويفسح لها الآماد ، أو يقطع عليها سبيل الامتداد فى الزمن . فإذا بها تنحسر وتظل اسيرة مناسبتها وتذوى آنا فآنا حتى يأتى عليها حين من الدهر وهى ليست شيئا مذكورا !!

«وبعد»

فقد عايشت هذه النصوص معايشة عصرية .. غير منقطعة الصلة بالجذور التراثية .. وكيف وهى من عيون تراثنا المضىء .. ولم أشأ ان اتعامل مع النص على أنه وثيقة نفسية أو وثيقة اجتماعية ، أو منشور مذهبى .. أو مغامرة لغوية كما يقول : «الأسلوبيون» بل تعاملت معه انطلاقا من قيمته الادبية واتكاء على مايشع من داخله من قيم جمالية بعيدا عن إقحام أى نظريات خارجة عنه وصبّه فيها ، ومن هنا يمكن أن أقول إن كل عمل إبداعى .. يدعونا إلى التعامل معه بطريقة مستقلة عن أى عمل اخر .. ومن هنا يصبح النقد عملا ابداعيا جديدا .. يفسر النص .. ويخرج كنوزه إلى القارىء .

● وآمل ان أكون بهذا العمل قد حققت .. بعض ما أطمح إليه فى هذا المجال .. راجيا من الله ان اوفق إلى إكمال هذا الطريق الشاق .

د . صابر عبد الدايم

مكة المكرمة - غرة جمادى الثانية ١٤٠٧ هـ

عاطفة الحب فى ظل المعجم الاسلامى :
« رسـالة الى الاميـرة »

شعر : عمر بن أبى ربيعة

باسم الإله تحية لمتيم .. تهدى إلى حسن القوام مكرم

وصحيفـــة ضمنتهـــا بأمانـــــة عنـد الرحـيل الـيك أم الهيتـــم
فيهـا التحيــة والسلام ورحمـــة حف الدمـوع كتابهـا بالمعجـــم
من عاشق كلـف يبـوء بذنبـه صب الفـؤاد معـاقب لم يظلـم
بادى الصبابة قد ذهبت بعقلـه كلــف بحــبك ياعثيــم متيـــم
يشكـو الـيك بعبـرة وبعولـة ويقـول أمـا اذ مللت فأنعمـى
لا تقتلينـــى يا عثيــم فإننــــى أخشى عليك عقاب ربك فى دمى
ان لم يكـن لك رحمـة وتعطــف فتحرجى من قتلنـا أن تأثمــى
لم يخط سهمك إذ رميت مقاتلى وتطيش عنك إذا رميتك أسهمى
ووجدت حوض الحب حين وردته مر المذاقـة طعمـه كالعلقـم
لا والـذى بعث النبـى محمـدا بالنــور والاسلام ديــن القيـم
وبمـا أهل به الحجيــج وكبـروا عنـد المقـام وركـن بيت المحـرم
والمسجد الاقصى المبـارك حولـه والطـور حلفـة صادق لم يأثـم
ما خنت عهـدك يا عثيم ولاهفا قلبى الـى وصل لغيـرك فاعلمى
فكـى أسيـرا يا عثيـم فانـه خلـط الحيـاء بعفـة وتكـرم
ورعى الامانة فى المغيب ولم يخن غيب الصديـق وذاك فعل المسلم
أحصيت خمسة أشهر معــدودة وثلاثـة من بعدهـا لم توهـم

---

(١) عثيم : مستعبد للحب .
(٢) أم الهيثم : كنيه المحبوبة .
(٣) كلف : شديد الحب مولع به .
(٤) العبرة : الدمعة والعوله : رفع الصوت بالبكاء والصياح .
(٥) هفا مال وأسرع .
(٦) وردته : أتيته .

هذى ثمانيــــة تهل وتنــــقضى — عالـجت فيهـا سقـم صـب مغـــرم
مكث الـرسول لديكُـم حتـــى اذا — قدم الــرسول وليتــه لم يقــدم
لم يأتنـــى لكــم بخــط واحــد — يشفـــى غلــيل فؤادى المتــقسم
وحرمتنـى رد السلام ومـــا أرى — رد السلام علـى الكريـم بمحـرم
ان كنت عاتبــة علـــىَّ فأهل ما — أن تعتبـى فيمـا عتـبت وتكرمــى
أنت الاميـرة فاسمعـى لمقالتـى — وتفهمـى من بعض مالـم تفهمـى
انـى أتــوب الــيك توبــة مذنب — يخشى العقوبـة من مليك منعــم
حتـى أنـال رضاك حيث علمتــه — بطريـف مالــى والتليـد الاقــدم
وأعـوذ منك بك الغداة لتصفحـى — عما جنيت من الذنـوب وترحمـى
إن تقبلـــى عذرى فلست بعائـــد — حتـى تغـادر فى المقابـر أعظمـى
لو كفـى اليمنـى سأتك قطعتهـــا — ولذقت بعد رضالك عيش الاجذم

الشاعر حياة وفنا :

عمر بن أبى ربيعة . شاعر الغزل فى الشعر العربى .

إنه قيثارة عزفت للحب أرق الالحان ، وأصدقها ، وأحلاها ، ذاق طعم الحب فغنى له ، وعاش حياته قصيدة عاشقة تبحث عن الجمال فى كل منتدى ، وتتخيله إذا لم تجده ، فتجسمه ، فيبدو أجمل من الحقيقة الكائنة .

لم يتكلف ابن ربيعة الحب ، ولم يدَّع الحرمان ، وانما فتح قلبه لعطر الأحبة ، فأصبح الكون لديه كائنات جميلة ساحرة شخصها فى صورة فتيات ناعمات اسرات ، يعرض عنه حينا ، وينصبن له الشراك أحيانا ، ويتوددن اليه فى دلال آسر ، وهو فى كل هذه الحالات الوجدانية شاعر يمتلك زمام الفن ، ويقترب من القلوب فى لغة عذبة ، وإيقاع مؤثر .

---

(١) سقم : مرصد .
(٢) الغليل : حرارة العطش والمراد أن يهدأ فؤاده وتخمد نار الشوق ويلتئم صدع الفؤاد .
(٣) الطريف من المال : المستحدث ، والتلبد : القديم .
(٤) الأجذم : مقطوع اليد .

وقد تجمعت عوامل عدة كونت شخصيته الأدبية ، فقد ولد فى بيت تظلله الرفاهية، ولا يفارقه الثراء .

فهو من أسرة بنى مخزوم ، وهى من سادات قريش ، «وكان أحدها وهو هشام بن المغيرة يلقب فى الجاهلية برب قريش»[1] .

وجده «أبو ربيعة» كان شجاعا من شجعان قريش . ويقولون «إنه لم يكن يقاتل إلا برُمْحَين» ولذلك سماه العرب «ذا الرمحين» لطوله أو أنه قاتل يوم عكاظ برمحين فسمى لذلك .

«وكان أبو عمر يسمى «بحيرا» وسماه النبى عليه السلام «عبد الله» واشتهر بين قريش بلقب «العِدْل» لانهم كانوا يكسون الكعبة فى الجاهلية من أموالهم سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فلقبوه «العدل لانه كان يعدل قريشا كلها فى كسوة الكعبة» .

وهذه المكانة الدينية لوالد عمر بن أبى ربيعة ازرتها مكانة اقتصادية أيضا . فقد كان هذا الرجل تاجرا موسرا ينتقل بتجارته بين الحجاز واليمن .

وحظى الرجل بمكانة سياسية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد استعمله النبى على ولاية «الجَنَد» وسوادها فى «اليمن» وظل فى ولايته على هذا الاقليم حتى توفى أثناء حصار العرب لعثمان بن عفان سنة خمس وثلاثين للهجرة .

وهذه المكونات الوراثية والدينية والاقتصادية والسياسية لشخصية عمر كان يمكن أن تجعل منه شخصية جادة تلعب دورا بارزا فى الدولة الإسلامية ، أو تخلق منه شخصية فيها وروع وتقوى ، كما حدث لاخيه الحارث الذى كان ورعا تقيا يعيب على أخيه هذا النهج السىء ، وهذا السلوك المشين فى الحياة .

وأعتقد أن المؤثرات السابقة كونت جانبا واحدا من شخصيته وهو الإحساس بالتفوق والحسب ، والاعتداد بالذات .

والذى أحدث التحول الخطير فى شخصية عمر عدة عوامل .

العامل الأول : حياته مع أمه :

حيث قضى مع أمه كل حياته تقريبا فقد كان أبوه يتركه مع أمه فى مكة ويذهب ليباشر عمله وهو وال على «الجَنَد» «ولم يكد عمر يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، حتى توفى أبوه فكفلته أمه ، وقامت على تربيته ، وكان لقيام هذه السيدة على تربية «عمر» سواء فى حياة أبيه أو بعد

(١) الاشتقاق لابن دريد «نشر الخانجى» ١٠١ ، ١٤٧ ، نقلا عن د . شوقى ضيف فى كتاب التطور والتجديد فى الشعر الاموى ص٢٦٩ .

مماته أثر عميق فى نفسيته ، فقد نشأته تنشئة كلها دلال ، واشتدت صبابتها به ، فكانت لا تفارقه ولا يفارقها ، وكانت تبالغ كعادة أمهات الولد الواحد فى هيئته وزينته وعطره ، وكل ما يتصل به واستمر ذلك دأبه طول حياته »[1] .

وهذه الام التى شاركت فى تشكيل شخصية عمر بن أبى ربيعة وتكوين نفسيته ، كانت من اليمن من حضر موت ، وتسمى «مَجْد» واليمن مشهورة بغزلها كما يقول المثل «غْزل يمانى ودل حجازى» فهى الى جانب تدليلها لعمر أورثته هذه الطبيعة المنعمة المفتتة بحب النساء والتغزل فيهن .

أما العامل الثانى فى اتجاه عمر الى الغزل فهو عامل «سيكولوجى يتعلق بتكوينه الجسمانى ، فقد كان وسيما على قدر كبير من الفتوة والشباب» وقد وصفه بعض من راه بين فتيان بنى مخزوم فقال إنه «قد فرعهم طولا ، وجهرهم جمالا ، وبهرهم شارة وعارضة وبيانا» فهو تام الاداة للغزل ومصاحبة الحسان»[ ] .

ولا يفهم من هذا أن الوسامة فى الانسان تدفعه دائما الى مثل الجو الذى أحاط بعمر ، وعايشه عمر ، حيث اللهو والعبث والتغزل بالنساء والاعتداد بالذات إلى حد أنه يتصور نفسه معشوقا لا عاشقا ، مطلوبا لا طالبا وهى صفات أقرب الى طبيعة الانثى منها الى طبيعة الرجل .

فظروف عمر المتشابكة مع وسامته وموهبته تآزرت فكونت هذه الشخصية التى تميز بها .

وهناك عامل ثالث يأخذ صفة العموم وهو «العصر الذى نشأ فيه ابن أبى ربيعة» ، هذا العصر الذى شهد انتقال مركز الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى دمشق ، وشهد هدوء حركة الدعوة الاسلامية فى مكة والمدينة ، وشهد التحول فى المجتمع المكى حيث الثراء ، ومجالس الغناء وتحولت مكة الى ما يشبه المسرح الكبير ، فالمغنون والمغنيات ما يزالون يضربونَ فى الصباح والمساء على أوتارهم ، وهذا الشباب المتعطل من حولهم فتيات وفتيان يجتمع بهم ، ويستمع اليهم ، يستمع فى بعض المنازل ويستمع فى المنتزهات بالضواحى[ ] .

---

(١) الاغانى ١ – ٢٥٨ نقلا عن : التطور والتجديد فى الشعر الاموى ص ٢٢٠ – ٢٢١ .
(٢) شاعر الغزل « عمر بن أبى ربيعة » عباس العقاد ص٩ .
(٣) د/ شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الاموى .

وانغمس عمر فى هذا الجو ، لا يستمع فقط بل يؤلف القصائد لكى تغنى ومؤلف الأغانى لابد أن يختلط بالقيان المغنيات ويتعرف على سيداتهن ، ويعايش هذه المجتمعات المدللة .

والغناء لم يكن شائعا فى ذلك الوقت بمثل الصورة التى نراها فى عصرنا الحاضر ، ولكنه كان يقتصر فى أغلب الاحيان على مجالس الامراء والسيدات الحرائر ربات القصور ، وبعض منه يكون فى الحانات ودور اللهو ، وكان عمر لا يفارق «الغريض» «وابن سريج» وهما أهم مغنيين فى عصره .

ويمكن أن نقول : إن عمر بن أبى ربيعة عاش حياة تشبه حياة الفنانين فى عصرنا الحاضر ، حياة تتنسم عبير الحرية من كل الجهات .

- حياة تتفتح فيها النفس لتستقبل كل رغبة جامحة فتحاول تحقيقها حتى عن طريق الخيال .
- حياة تنتهب اللذات لتسعد الاخرين ، وتسعد هى بهم .
- حياة لا تقنع بالحصار داخل القيود ، ولكنها بطبيعتها ثائرة متمردة .

وهذه الحياة المنطلقة لا تستطيع تفسير أبعادها وحقائقها شأن الفن تماما*، فالفن متعدد الأبعاد ، وحياة ابن ابى ربيعة مترامية الأبعاد كذلك لدرجة أن النقاد والمؤرخين لم يستطيعوا أن يقفوا على أسرار تجاربه ، وما هو الحقيقى فيها ؟ وما هو الرمز ؟

وهل تجاربه من النوع الحسى ؟ أم أنها فى أكثرها خيالات شاعر ؟

وهل رجع عن هذه المغامرات النسائية وتاب عنها ؟ أم ظل سادرا فيها حتى مماته ؟

كل هذه الاسئلة لم ينطق التاريخ باجابة شافية عنها ، ومازلنا نحن النقاد - نحاول فك طلاسمها .

ويبقى الفن وحده شفيعا لشاعرنا الذى أدانه مؤرخو الادب وهم لا يدرون !! حيث تعددت الروايات حول تحديد وفاته وسببها ، وهى روايات فى مجملها تفصح عن موقف التاريخ الادبى من هذا الشاعر .

فيقول «أبو الفرج» إنه عاش سبعين سنة ، وانه ولد ليلة قتل «عمر بن الخطاب» أى فى سنة ٢٣ هـ «وقالوا بعد ذلك» «أى حق رفع وأى باطل وضع» .

إن تحديد المولد بهذه الطريقة فيه إدانة لعمر ، ورفض لمنهجه الحياتى ويزعم بعض الرواة «أنه غزا فى البحر فاحترقت سفينته فاحترق»[١] .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٥٤ .

وهذه أيضا إدانة تاريخية لعمر توقع عليه عقوبة الاعدام جزاء ما ارتكبه من جنايات كما يتصور واضعو هذه الرواية .

ويزعم اخرون «أنه تغزل بسيدة وهى تحج فدعت عليه فمات» وهى رواية تقرب من الخيال ولكنها تدين عمر أيضا ، وتفصح عن غيرة شديدة على مقام النسك وقدسية الشعائر ، وكان ابن أبى ربيعة يرتكب مثل هذه الافعال كثيرا . حيث يتعرض للنساء الجميلات فى الطواف ، ويتغزل فيهن ، ويشيد بمحاسنهن .

وعمر فى القصص التى رويت بشأنه يشبه «مجنون ليلى» فيما نسج حوله من أخبار كثيرة ، ويمكن أن يكون كل منهما شبه أسطورة فنية . وجد الرواة فى شخصيتهما ما يشبع نهم عشاق الشعر والشعراء ، ومحبى أحاديث الغزل واللوعة والهيام .[١]

وشاعرية «عمر بن أبى ربيعة» ليست محلقة أو متفوقة بحيث لا نجد لها نظيرا ، فكثير من شعراء العربية يفوقونه فى صناعتهم الشعرية ، ولكنه تفرد بميزة جعلته رائدا فى المجال الذى احتفظه لنفسه ، فهو يعد الرائد فى شعر الغزل ، وليس رائدا للشعر «فقد يكون الشاعر أصلح الناس لتمثيل طريقة أو مدرسة من مدارس الشعراء المختلفة ، ولكنه مع ذلك لا يكون إماما فى صناعة النظم وصياغة القصيد»[٢] .

وقد نوه بشاعرية عمر الكثير من النقاد القدامى والشعراء ، وهى شهادات تؤكد تفوق عمر فى منهجه الذى اختطه لنفسه ، ولم يلحقه فيه الكثيرون ، فقد روى عن «نصيب» (وهو شاعر حجازى نوبى الابوين) انه تكلم عن عمر بن أبى ربيعة فقال «هو أوصفنا لربات الحجال» .

وقال الفرزدق بعد أن سمع طرفا من نسيبه «هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ، ووقع هذا عليه» .

وكان جرير يسمع شعر ابن أبى ربيعة فيقول «هذا تهامى اذا أنجد وجد البرد» .

وسئل حماد الراوية عن شعره فقال «ذلك الفستق المقشر» .

● أما الوسائل الفنية التى استخدمها الشاعر فى تصوير مشاعره فهى متعددة وطريفة ومن خلال النص الذى سنحلله سنقف على هذه الوسائل . واستطيع أن ألمح اليها وهى :

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن حياة ابن ابى ربيعة : ارجع الى كتاب الكامل للمبرد جـ٢ وكتاب الاغانى جـ٨ .

(٢) شاعر الغزل - للعقاد .

أ - السهولة اللفظية والبعد عن ألفاظ البداوة . ولهذا تفسير فنى سنقف عليه فى تحليل النص .

ب - الاقتراب من اللغة الشعبية فى كثير من المواقف ، وذلك يحسب لعمر ولا يحسب عليه لانه طوع اللغة العصرية لأشعاره ، وفى ذلك منحى تقدمى يشارك فى تطور اللغة .

جـ - الحوار فى القصائد . وذلك يعطيها حركة ويبعدها عما يشبه التحليق بدون هدف أو الدوران حول النفس فى حيرة ، أو تكرار الحركة والقول والفعل بدون طائل .

د - استغلال «فن القص» حيث تصبح القصيدة حكاية فنية ، وهذا الاتجاه الفنى أشبه «بالدراما» الشعرية فى هذا العصر .

هـ - القالب الرسالى :

فقصائده أحيانا كثيرة تكون شبه رسائل فنية لها كل مقومات هذا النوع من التعبير من مقدمة وعرض أفكار وخاتمة ولكن فى رؤية شعرية .

و - المعجم الاسلامى :

وقد يبدو هذا غريبا على حقل ابن ربيعة الفنى ، لكنه يكشف عن أصالته الفنية ، ويكشف عن مزاجه الذى تأصل فيه الميل الى الدين ، والاقتناع بالاسلام ، فقصائده فى ديوانه هجرت المعجم الجاهلى فى الغزل ، والتقطت من المجتمع الجديد تعبيراته ، وامتزجت بأفكار الاسلام ومعالمه ، وهذه ميزة لعمر لم نعثر عليها فى أشعار الكثيرين الذين أتوا بعده وبخاصة فى فن مثل فن الغزل .

والنص الذى ندرسه نموذج تطبيقى لهذا الاتجاه وأعتقد أنه اتجاه حرى بالدراسة المستقلة ، ورصد هذه الظاهرة من كل جوانبها النفسية والاجتماعية والسياسية والوراثية .

وقد تصفحت ديوانه فوجدته يزخر بالكثير من هذه التعبيرات الاسلامية ومنها قوله فى قصيدة له[1]

ما أنا والحب قد أبلغنى	كان هذا «بقضاء وقَدَرّ»
ليت أنى لم أكن عُلِّقْتُكُمْ	(كل يوم أنا منكم فى عِبَرْ)
(كلما توعدنى تخلفنى)	(ثم تأتى حين تأتى بنُذُر)
عمرك الله أما ترحمنى	أم لنا قلبك أقسى من حَجَرْ
قلت لما فرغت من قولها	ودموعى كالجمال المُنْحَدِرْ
أنت يا قرة عينى فاعلمى	عند نفس عدل سمعى وبصر
فاتركى عنك ملامى واعْذرى	واتركى قول (أخى الإفك الأشر)

(١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٨٩ .

« الرؤية النقدية للنص »

أ - « الهيكل الفنى للتجربة »

بنى الشاعر هذه القصيدة بناء فنيا جديدا ، فلم يبدأ القصيدة بوصف الأطلال شأنه شأن أغلب الشعراء ، ولم يبدأ بوصف الخمر ، أو وصف الحبيبة ، أو وصف الناقة ، أو وصف الصحراء ولكنه بدأ القصيدة بما يشبه بداية الرسائل المتبادلة بين الاحبة والاصدقاء .

والحق أن الشاعر حين لجأ الى هذه البداية فإنهساير فطرته ، ولم يضع أمامه نموذجا شعرياً يحتذيه ، فهو مبدع فى فتحه الشعرى ، وفى اتجاهاته فى تلوين موضوعات شعره برغم اتحاد مضمونها ، فهو مثل المصور الذى يرصد المنظر من عدة زوايا مختلفة ، وفى كل لفظة تجسيم لإحساس الفنان ، وتعبير عن شعوره تجاه ما يصوره ويعشقه .

وقد بنى الشاعر قصيدته على هيئة رسالة ، حيث تضمنت كل خصائص الرسالة الفنية .

وذلك أن الرسالة تبدأ بمقدمة ثم تعرض لأفكار الشاعر ثم تأتى الخاتمة ، وهكذا ولدت القصيدة تجربة جديدة فى هيكلها .

ولا يعنى هذا أن الشاعر مَنطق مشاعره ، وجفف أحاسيسه ، حين لجأ الى هذا الشكل فى قصيدته ، فشعوره متوهج فى كل بيت ، وعاطفته تشيع فى القصيدة كلها .

وحين نعرض لمكونات هذه الرسالة الشعرية نجد الشاعر فى المقدمة يحيى محبوبته «أم الهيثم» ويضفى عليها صفات حسية ومعنوية من شأنها أن تستميل قلب هذه المحبوبة كالتكريم وحسن القوام ، ويبعث اليها التحية والسلام والرحمة ، وفى هذه المقدمة يصف نفسه وصفا ممتزجا بالاسى والشوق والشكوى ، وهو بهذا يفتح قلب المحبوبة على واقعه الحزين المنتظر بزوغ المحبوبة من أفقها الساحر ، وعودتها من رحلة الاغتراب التى كادت تودى بحياته .

ثم يعرض مشاعره أو أفكاره المصورة التى تجسد عذابه الذى وصل الى درجة أنه مقتول بسبب هذا الهجران ، وهى دائما تصيبه بسهامها بينما تطيش سهامه ، وفى ذلك إعلان عن هجرها وعذابه ، وحوض الحب مر المذاق بسبب هذا الهجران .

وهو برغم هذا الالم يقسم بأنه لم يخن العهد ، ولم يمل إلى غيرها ، ثم يعرض لقضية الزمن الذى هجرته فيه الحبيبة ولم ترد على رسائله ويحدده بثمانية أشهر .

وبعد عرض هذه المشاعر التى يمتزج فيها اليأس بالامل ، والعزة بذلة الحب ، والشموخ الانسانى بالضعف الوجدانى .

يبدأ بعد هذا فى الخاتمة وهو معتز بنفسه ، حريص على إرضاء محبوبته فهو كمن يضرب باليمين ويعتذر بالشمال ، عزة وحرص ، إقبال وتمنع ، إباء وخضوع فهى الأميرة ، لكنها لا تفهم بعض الأمور فيقول لها «وتفهمى من بعض مالا تفهمى» وهذه قسوة فى الخطاب ، لكنه يرجع ويقول «أتوب اليك» وفى ذلك تعلق به وفناء فيه .

ويختم القصيدة بقوله :

لو كفى اليمنى سأتك قطعتها   ولدعب بعص رضاك عيش الاجذم

ان رضاها فوق كل شيء فكفه اليمنى أعز ما يملك الانسان وهى رمز قدرته نراه يستهين بها فى سبيل رضا محبوبته .

وليس هناك ختام أروع من هذا الختام الفنى فى مثل هذه المواقف .

★ ★ ★

ب - «مقومات التجربة»

التجربة الشعرية هنا محورها قضية الحب ، جذورها الحب ، وثمارها التاخى والتالف .

والحب بمعناه العام الشامل كحب الكون ، وحب الانسان وحب الطبيعة ، وحب الله لا نعثر عليه فى ديوان الشعر العربى القديم بوصفه ظاهرة مستقلة ، واتجاها تأمليا فى الشعر العربى . ولكن هذا الشعور الفنى يسرى فى القصائد المتعددة الأغراض أو يبرق فى ثناياها ، والتجربة هنا ترتكز على قضية « الحب الخاص » حب الرجل للمرأة ، فالمرأة تمثل لب الشعر عند عمر بن أبى ربيعة ، وتتجاوز التجربة هنا حدودها الخاصة فتأخذ القصيدة معنى إنسانيا جديدا .

وفى هذه القصيدة تبدو تجربة الشاعر متوهجة ، فيها إحساس بالهزيمة والاستسلام والأسر ، والقتل ، والاحساس بالذنب وعدم القدرة على مواجهة الرحيل .

وارتكزت هذه التجربة على مقومات فنية عديدة جعلت منها وحدة فنية متكاملة .

- ١ -

فالالفاظ : تمثل المواد الخام التى يُعلى بها الشاعر صرح تجربته فكيف اختار الشاعر الفاظه ؟ هل أتى بها غريبة عن جو تجربته ؟ أم تكلف غرابتها ونحتها من صخر كما فعل الفرزدق ؟ أم خلع وجهه الحضرى ولبس قناع البداوة ووعَّر ألفاظه كسبا لرضا النقاد والنحاة وعلماء اللغة ؟

إنه لم يلجأ الى العوالم السابقة فى بناء هيكله الفنى ، بل ترك فطرته الشعرية تتحدث ،

وصوته الحضرى المحفوف بالثراء والدلال ينطلق فى عفوية وصدق ، كالنهر المنساب فى قلب الحقول التواقة إلى الرى .

ولا يختلط صوت عمر الشعرى بغيره من الاصوات الشعرية ، وذلك لتفرده بهذه الرقة اللفظية الدالة الحانية .

فالالفاظ تنبع من لغة الحياة المستعملة فى ذلك الوقت ، وليست مأخوذة من ذاكرة اللغة التى تكن للقديم كل هيبة وجلال .

- فالتحية فى بدء هذه الرسالة الشعرية تشتمل على ما تبدأ به الرسائل من ألفاظ «باسم الاله تحية لمتيمّ .. تُهدى الى حسن القوام مكرّم وترد هذه الالفاظ .

السلام – الرحمة ، الدموع ، العاشق ، المعاقب ، الصبابة ، المتيم ، العبرة ، وهى لبنات طبيعية لبناء هذا الجزء من المعمار الفنى للقصيدة .

- وحين يبث شكواه ، ويفصل أبعاد قضيته نراه كأنه خلف جدران السجن يدافع عن نفسه فتشرق هذه الالفاظ فى محكمة الحب .

لا تقتلينى ، عقاب ربك ، رحمة وتعطف ، فتحرجى أن تأثمى ، رمى السهام ، المقاتل ، حوض الحب مر المذاق كالعلقم .

- وحين يقسم حتى يبرىء نفسه ويؤكد صدقه يقسم بما يقسم به الناس جميعا بالله ، وبما يهل به الحجيج ، والمسجد الاقصى ، والطور .
- وفى مقام العتاب يذكر العبارات والالفاظ العادية التى تقترب من لغة النثر فيقول :

مكث الرسول لديكم حتى اذا ... قدم الرسول وليته لم يقدم
لم يأتنى لكم بخط واحد ... يشفى غليل فؤادى المتقسم
وحرمتنى رد السلام وما أرى ... رد السلام على الكريم بمحرم

وألفاظ الشاعر لا تكتسب طرافتها وقيمتها الفنية وهى منفصلة عن جاراتها من الالفاظ الاخرى ، وانما يأتيها ذلك السحر الفنى من ترابطها وتكاملها ، وموافقتها للجو النفسى الذى يحيط بالتجربة التى يخوضها الشاعر فى صدق واخلاص .

وكذلك تكتسب هذه الالفاظ قيمتها الفنية من إشعاعاتها التى تطلقها فتضىء التجربة وتفك رموزها .

- فبناء الكلمة النحوى هنا له دلالته فى التجربة الشعرية .

إن الشاعر يجمع بين قوالب الكلمة الوظيفية فى خدمة تجربته واثرائها .

- فالجملة الاسمية فى البيت الاول «باسم الاله تحية المتيم» لم يفتتح بها الشاعر رسالته عبثا ، ولكنه جاء بهذا المفتتح معبرا عن داخله المشوق الى الوصول لمستقر الحبيب فهذه التحية أبدية غير مقيدة بزمن ، فقضية الزمن هنا معدومة لان التحية من الاله .
- وجاءت فى صيغة الجملة الاسمية إعلانا عن استقرارها ، وأنها موجودة منذ البدء والى المنتهى ، والحب دائم دوام الحياة .
- والتعبير بالجملة الفعلية فى الشطر الثانى «تُهْدى إلى حسن القوام مكرم» يدخل الإهداء فى

إطار الزمن ولكنه الزمن المتجدد المستمر الذى يتواصل عطاؤه ، والشاعر لم يدرس القضايا اللغوية ولا الأسرار البلاغية ولا المعايير النقدية ولكنها الموهبة ، هبة السماء التى تصنع اللغة والبلاغة والنقد .

وقد بنى الشاعر الفعل «تُهدى» للمجهول حتى لا نشتم من كلامه رائحة المن على محبوبته حرصا منه على رضاها ، وهذه أخص خصائص المحبين . الحرص على رضا المحبوب ، بكل الوسائل . وفى ذلك تسام فى المعاملة وذوق ورقة فى العلاقات الإنسانية .

ويتحدد الزمن حين يصور الشاعر كتابة الرسالة فيقول :

وصحيفـــة ضمنتهـــا بأمانـــــة   عند الرحّـيل إلـيك أم الهيثـــم

فقد استعمل الفعل الماضى هنا ، وهذا موضعه من التجربة ، ولأن الشاعر يكره الرحيل الذى يسرق منه أحلى لحظات عمره ، حاصر الزمن بدائرة الماضى وأتى بالفعل «ضمن» ليكون الرحيل خبرا يُحكى ، وليس واقعا مستمرا ، أو مستقبلا مفروضا جاثما على رؤى الشاعر وأحلامه .

ومحتوى هذه الصحيفة يفسر أبعاد التجربة ، ويكشف عن أمنيات الشاعر ، فالمحتوى ثلاث كلمات «التحية والسلام والرحمة» .

ونحن لم نقرأ فى الاشعار المتزامنة مع شعر ابن أبى ربيعة أو السابقة عليها مثل هذه الافتتاحية الشعرية .

والكلمات الثلاث بالرغم من أنها كلمات شعبية ذائعة فى الناس . لكن الشاعر جعلها مفتاح تجربته وكأنها «شفرات» يومىء بها الى مراده من حبيبته .

فالتحية إعلان عن رغبته ومواصلته العلاقة مع هذه المحبوبة ، وهذا خط واضح فى مسار القصيدة كلها .

والسلام إفصاح عن اشتياق الشاعر إلى الأمان ، وانتظار عودة المحبوبة وغروب زمن

الرحيل ، وهو يفصح أيضا عن أمنيات الشاعر فى أن تظل حبيبه سالمة من كل ما يبعد عنها البهجة والسعادة وهى فى غربتها .

والسلام هنا حلم الشاعر فى خلاصه من ذلك الصراع الوجدانى وهذا الجدل الذى يصارع فيه زمن الهجر ولحظات البعاد .

والرحمة : توسل من الشاعر إلى محبوبته أن تشفق عليه ، وأن تنظر فى داخله وتقرأ كتاب المعاناة المنقوش ، على أوتار قلبه ، وهى دعاء من الشاعر أن ترى حبيبته ما آل اليه أمره فترحمه وتصل ما انقطع .

إن هذه الكلمات الثلاث أضاءت التجربة فاكتشفنا زواياها ، ومشاعر الشاعر تفسير لهذه الكلمات وترجمة لها .

- ٣ -

وحينما يصف الشاعر واقعه الاليم ، نراه يصف نفسه باثنتى عشرة صفة متوالية لا يفصلها حرف عطف واحد . بل تتوالى الصفات وكأنها مشاهد ظهرت فجأة أمام عين الرائى ، أو براهين القيت دفعة واحدة لكسب القضية ، وقد وردت هذه الصفات فى ثلاثة أبيات متتالية أيضا ، وتصا[illegible]ت فيها الازمنة ، وتحاورت قوالب الكلمة ومشتقاتها .

فهو عاشق ، كلف ، يبوء بذنبه ، صب الفؤاد ، معاقب ، لم يظلم ، وهو بادى الصبابة ، ذهبت بعقله المحبوبة ، كلف بحبها برغم هجرها ، متيم ، يشكو بدموعه ، ويشكو بصرخاته .

وهذه الصفات تمثل هوية الشاعر فى بعد الحبيبة ، ونحن نرى البناء النحوى لهذه الصفات يتوزع بين الفعل المضارع فى «يبوء بذنبه» لم يظلم «يشكو إليك» وبين الفعل الماضى فى «ذهبت بعقله» وفعل الامر فى قوله «فأنعمى» .

وسيطرة الفعل المضارع هنا ترجمة حقيقة لوصف ذلك الواقع المثخن بالجراح وحينما نعيد قراءة الابيات نجد أنه لم يأت بفاصل بين الصفات الا بعد أن انتهى من رصدها ثم بدأ يواجه المحبوبة ويطلب منها أن تخرجه من هذا العالم الظالم ، فهو المعاقب بدون ظلم وقد ذهب لذلك عقله ، وتشكلت شكواه من [illegible] عليه المحبوبة ، وتنقذه من [illegible] الاحزان .

والنداء فى قوله «يا عثيم» يأتى فى قلب الصفات ويتوسط عالم الشاعر المرسوم بالكلمة ، وهو بهذا التصرف اللغوى والبناء النحوى يفصح لنا فى رؤيته الشعرية عن أن المحبوبة سر صراعه ، وبؤرة وجوده ، ونقطة التوازن فى عالمه ، ومركز دائرة أحاسيسه .

- ٤ -

واستعمال الشاعر لفعل الأمر هنا قليل . فالقصيدة كلها لم يرد فيها فعل الامر الا ست مرات «فأنعمى» فتحرجى ، فاعلمى ، فكى أسيرا فاسمعى ، وتفهمى «وفى ذلك بعد عن التسلط الذى يمكن أن يوصف به الرجال ، ودلالة فنية على خبرة عمر بما يرغب النساء ، ويستميل قلوبهن ، فالمرأة وبخاصة فى مواقف الحب تنفر من الأوامر ، ودائما لديها احساس بتودد الرجال إليها ، والاعتذار لها ، وقد فهم عمر هذه الطبيعة فترجمها إلى سلوك فنى تألق فى موهبته الرائدة»

ولا يترك الشاعر الخيط يفلت من يده فيغضب ويعلن ثورته على هذه المحبوبة التى أحاطته بالصراع والالم ، فهو يتسم بالمهارة فى كسب رضا من أمامه ، فحينما يصدر منه النهى فى قوله «لا تقتلينى» يعتذر عن هذا النهى فينطق باسمها فى نداء حان ودود «يا عثيم» وفى الوقت نفسه لا يظهر جزعه من هذا القتل ، ولكن كل ما يخشاه من بعد القتل عقاب الله لها !!!

إن هذه القدرة فى كسب المواقف لا يؤتاها الا قليل وفى مقدمتهم ابن ربيعة «أليس هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه» ؟ .

وتكرار لفظ «عثيم» وهو اسم المحبوبة يدل على تمكن هذه المحبوبة من الشاعر ، وأنه يسعد بذكر اسمها ويستلذ بذلك . فللاسماء رنين فى السمع وتأثير فى الشعور ، وهزة فى الوجدان ، «وقد أدركت الشعوب البدائية منذ أحقاب سحيقة قيمة «العَلَم» ورفعوا منزلته حتى جعلوه مساويا للروح والجسد ، فكان المرء بينهم يعد فى نظرهم مكونا من ثلاثة أشياء «الروح والجسد والاسم» وكانوا يتصورون أنه من الممكن التأثير فى جسد الانسان وفى روحه عن طريق اسمه «ولا تزال بعض الاسر المصرية حين يفقدون عزيزا عليهم لا يلفظون باسمه مطلقا ، ويغيرون أسماء الاطفال المسمين بمثل هذا الاسم ، ومن الاسر من يعز عليهم فقدان انسان عزيز فيسمون باسمه طفلا من أطفالهم ، وكأنهم بهذا يتصورون أن جزءا منه وهو اسمه لا يزال حيا بينهم ، وأنهم لم يفقدوا كل ما يتصل به»[1] .

(١) . ابراهيم أنيس : من اسرار [illegible] ص ٨[illegible]

وخفة الروح الشعرية عند عمر بن أبى ربيعة تسرى الى البيت التالى مباشرة .

ان لم يكن لك رحمة وتعطف فتحرجى من قتلنا أنة تأثمى

فالشاعر يبتعد عن الطلب المباشر فربما يظن أنه يفرض عليها ما يريد ، ولكنه طلب منها الرحمة والتعطف تلميحا لا تصريحا ، فهو يخاف عليها من الاثم اذا لم ترحم ولم تتعطف وفى ذلك قتل له .

- إن هذا البناء الفنى ، وهذه الصياغة تحلل لنا نفسية عمر الرقيقة التى لا تغضب فيفلت منها الزمام ، ويضيع الحق ، ويهتز الميزان .

وفى البيت التالى :

لم يخط سهمك اذ رميت مقاتلى وتطيش عنك اذا رميتك أسهمى

تبدو المفارقة التصويرية ، ولا تفارق الشاعر خفة روحه ، ومحاصرته لمحبوبته بهذه المقابلات الطريفة ، والمواقف التى يظهر فيها ضعفه كسبا لرضا الجانب الاخر .

ان هذا البيت كناية عن تمكن هذه المحبوبة من الشاعر فقد رمته بسهام الحب ، فأصابت مقاتله ، وهو لم يقدر على ذلك بعد !!

وهو يعلن هذا امعانا فى كسب الموقف فالمعانى تتازر مع الالفاظ مع الذكاء الفطرى فى استعمال اللغة لتكتمل التجربة الفنية .

ولا ريب فالشاعر من سلالة عربية عريقة ، ونشأ فى بيئة تموج بالصراع والجدل ، وتمور بالمتناقضات .

ولا مراء فى أن العوامل الوراثية والبيئية والشخصية أكسب الشاعر هذه القدرة على تلوين أفكاره ، وضبط مشاعره ، وبخاصة أمام المرأة لانها دائرة وجده ، وقد أدرك ذلك العلماء فى عصر عمر بن أبى ربيعة «فكان ابن أبى عتيق وهو من سلالة أبى بكر الصديق يتشفع لعمر بن أبى ربيعة عند صديقته ، الثريا «ولا يرى فى الدنيا خيرا اذا تم الصدع بينهما[1]» .

وتتماسك الابيات فى تسلسل شعورى ، فالقصيدة كما قلت رسالة شعرية وهى أيضا قصة شعرية تموج بالمشاعر والاحداث .

«ووجدت حوض الحب حين وردته مر المذاقة طعمه كالعلقم»

---

(١) شاعر الغزل : عباس العقاد ص ٢٠ .

ان هذا البيت فيه إدانة للمحبوبة ، وتمسك بها ، وعتاب قاس لها والشاعر لم يلجأ الى التشبيه المباشر إلا فى هذا البيت وهو تشبيه بسيط مألوف لكنع معبر عن نفسية الشاعر ، متآلف مع الجو الشعرى الذى يغمر القصيدة إنه يعبر عن خيبة أمله فحوض الحب مر المذاق كالعلقم ، والتعبير بقوله «حوض الحب» عن طريق اضافة المشبه به الى المشبه فيه ايمان من الشاعر بقيمة الحب فى الحياة فهو كالماء . فى وجوده تحيا كل الاشياء ، وفى غيابه تحتضر الحياة ، وتذوى معالم الاشياء !!

واذا كانت هذه القيمة للحب متأصلة فى نفس الشاعر ممتزجة بتكوينه فأى كارثة تنزل عليه حين يذوقه فيراه علقما ؟

إن ايمانه بالحب يسمو به فوق الصدمات ، ويؤكد هذا الايمان بما يفسر مصدر هذه المرارة ، فقد تكون هذه المحبوبة أساءت الظن بالشاعر حيث توهمت أنه مال الى غيرها ، أو خان عهدها ، أو ربما وشى واش لها بذلك .

والبناء الفنى للقصيدة مترابط فهى «دراما» شعرية تكاد تتحقق فيها الوحدة العضوية ، وأقول ان الوحدة الفنية من سمات هذه القصيدة ، وهى أن تتآزر الالفاظ والعبارات والافكار والاخيلة والموسيقى فى نمو التجربة الشعرية ونجاحها واستمرارها .

- فالشاعر بدأ بالمقدمة ثم وجه حديثه العاتب الحانى الصادق الامل الى محبوبته . وهو فى هذا الحديث يفند الإساءات التى وجهتها اليه الحبيبة ولكن فى اسلوب رقيق حريص على هذا الحب ، ثم بعد ذلك يدخل الشاعر فى عالم جديد حيث بحث فى زوايا نفسه عن أسباب الهجر فوقع فى نفسه أن حبيبته ربما ظنت أنه خان عهدها ، أو هام بغيرها . فكيف يفند هذا الوهم الذى تجسد أمامه حقيقة مؤكدة ، إنه أقسم بالله وبالمقدسات التى تعتز بها البيئة التى نشأ فيها الشاعر اعتزازا وجدانيا وحضاريا ومصيريا ، وعلى أى شيء أقسم ؟ أنه أقسم على أنه ما خان العهد ولا مال لغيرها ، وهذه حقيقة لا تنتظر التصديق ، وهو فى غياب هذه الحقيقة فى سجن رهيب ، فى قيود الحزن ، وهو ينطوى على صفات يجدر بها أن تضعه فى الذروة من الرجال ، انه ينطوى على الحياء ، ويرعى الامانة فى المغيب ولا يخون الصديق فى غيابه ، وهذه الصفات من خصائص سلوكيات المسلم فى الحياة .

ان هذه الصفات مرتبطة بما أقسم به ارتباطا فنيا ونفسيا مما يعطى للتجربة وحدة شعورية ، ويكشف عن طبيعة وجدان عمر بن أبى ربيعة ويجعلنا نتساءل عن هوية هذه

المحبوبة ، هل تنحصر فى ذات المرأة فقط أم أن الشاعر يتخذ من المرأة معبرا الى أشواق كونية ، وأحلام حضارية ؟ رغبة فى التحرر من قيود النفس ، ومن جموح العواطف وتحكم الغرائز .

إن المحبوبة هنا تتجاوز دائرة المرأة وتنطلق لتجسد توق الشاعر الى الحرية التى يتخيلها ، حرية الفكر ، حرية الروح وهى تنبع من منظور اسلامى .

ويمكن ان تكون المحبوبة هنا تجسيدا لحلم الشاعر فى حضارة كونية كبرى ينعم فيها بالامن والعزة والهدوء ، فهو أسير القيود ، وهو يعيش فى عصر يضج الخلافات ، والتصارع ، وتناحر الاحزاب السياسية والفرق الاسلامية ، واضطهاد الحزب الحاكم لمعارضيه وفى مقدمتهم الخوارج والعلويون (وهو يرى شمس العقيدة التى توهجت تبدأ فى مسيرة الغروب) .

إن الذى يكشف عن هذه الرموز وتلك الابعاد . المقدسات التى أقسم بها الشاعر حيث يقسم بالله ويذكر النبى محمد ، والنور ، والاسلام وشعائر الحجيج ، وتكبيرهم ، والمقام ، والركن والبيت الحرام ، والمسجد الاقصى ، والطور ويؤكد أن صفاته صفات المسلم ، فهو مرتبط بهذه اللبنات الحضارية ، خائف على ضياعها .

ويعود الشاعر مرة أخرى إلى دائرة «الحب الخاص» فيصف واقعه الحزين ، ويعرض مشهد الانتظار الذى استغرق ثمانية أشهر وهو صب مغرم يعالج سقمه بنفسه على أمل اللقاء ولو فى رسالة تعيد اليه توازنه لكن اماله تذهب سُدًى ، ولم يظفر إلا بالحرمان ، ترى هل هى رحلة الاخفاق ؟ هل الشاعر هنا يذكرنا بسيزيف والصخرة الصماء ؟ تلك الاسطورة التى تجسد هروب الأمل وإخفاق المسعى مع الاصرار على الوصول والتماسك امام جهامة الاحداث ... وعورة الدروب .

هل يختلف الامر فى الحالتين ؟ سيزيف يحاول دفع الصخرة الى أعلى الجبل فترتد عليه يحاول دفعها مرة ولا يزال هكذا فى صراع مع المحاولة والإخفاق .

وعمر بن أبى ربيعة يذهب الى حوض الحب ، ويستهين بكل شىء فى سبيله ولكنه يجده كالعلقم فلا ينفر منه ، ويحاول الابقاء عليه ، ثم لا يجنى سوى الاخفاق والحرمان ، ولا يهرب بل يحاول المصالحة ، ويعلن التوبة طمعا فى الرضا ، إنه الصراع الانسانى فى أسطورة «سيزيف» وفى واقع ابن ربيعة الفنى .

ويختم الشاعر رسالته الشعرية بمناقشة القضية التى عذبته فيخاطب المحبوبة بقوله : «أنت الأميرة» وفى ذلك إعلاء من شأنها ، وتقدير لها .

«الأميرة . لفظ فيه سحر الأسطورة ، «مثالية الجمال» «لذة العشق واستعداد العاشق

للسفر والتضحية فى سبيل الظفر بهذه الأميرة ، وقد أراد الشاعر أن يوقظ واقع هذه الأميرة ، وينبهها لما هو فيه ، وقد رآها غافلة عنه تكاد تقتله بهذا التناسى ، وعاقبته حين جعلت طعم الحب كالعلقم ، وحين أوقعته فى أسر الاحزان ، وجعلته يذوق نار الحرمان .

ودق الشاعر على باب الأميرة وواجهها بهذا الامر « اسمعى لمقالتى » وكان يمكن أن يكون فعل الأمر هنا من باب الالتماس أو الدعاء ، ولكن الشاعر تابع إنذاره أو أجراس التنبيه حين قال «وتفهمى من بعض مالم تفهمى» فالفعل «اسمعى» وبعده الفعل «تفهمى يعدان إنذارين من الشاعر ، وإيقاظا لوجدان الحبيبة ، وقد مهد لهذه الحِدَّة فى الخطاب بلفظ الأميرة ، ولا يتركها تناقشه بل يعلن التوبة . وهو بذلك يفسر الأمر الذى أصدره فى الفعل (اسمعى وتفهمى) فهو ثورة من أجل الحب . ولفظ الأميرة يمهد لهذا الجو الشعرى والنفسى .

وهذه التوبة لم تكن كلمة مجردة ولكنه صاغها فى أسلوب التشبيه إشارة إلى قدسية هذه العلاقة، وكذلك يفصح عن هُوِيَّة هذه المجوبة فهى كما قلت تتجاوز حدود المرأة إلى آفاق أكثر شمولا،ترتبط بمصير الانسان وأمله فى الخلاص من القلق والعبث والضياع ، ويمكن أن تكون هذه المحبوبة حياته الجديدة التى يتمناها لنفسه ويتمناها للمجتمع الإسلامى كله .

ويقوى هذا التفسير أنه يعلل توبته بنوال رضاها بأى ثمن ، وفى أى مكان ، وأنه يخشى أن يأفل عطاؤها المأمول ولا يبقى سوى إحساسه بالاسر ، وملكيتها له .

« حتى أنـال رضاك حيث علمتـه   بطريـف مالـى والتليـد الاقــدم »

وهو يجعلها خصما وحكما ، ويطلب منها الصفح والرحمة .

« وأعوذ منك بك الغداة لتصفحى   عما جنيتُ من الذنوب وترحمى »

- ترى من أى شىء يستعيذ منها بها ؟
- وعن أى الذنوب يريد الصفح ؟
- وما لون الرحمة المطلوبة ؟
- ومَنْ هذه الأميرة التى يتوجه اليها بهذه المشاعر المتوسلة ؟
- وعن أى شىء يتوب ؟

إن الاجابة عن هذه الأسئلة تتعدد كلما كررنا هذه الأسئلة ذاتها فالجو هنا يعبق بالمشاعر الوجدانية الصادقة .

والنفث الشعرى الحار تفتح له الآفاق صدرها لتستقبل موجاته العِذَاب

ويلقى الشاعر آخر ما فى وجدانه من شحنات عاطفية تجاه هذه المحبوبة الجديدة فهو سيظل يدافع عن حبها حتى نهاية حياته إن قبلت عذره وتوبته وسيقطع كفه اليمنى ويعيش عيش الأجذم اذا أساءت كفه الى الأميرة فكل ما يحرص عليه الشاعر هو رضاها الذى يبعث فى نفسه السعادة ويقربه من منطقة تحقيق الحلم .

« وأعوذ منك بك الغَدَاة لتصفحى عما جنيت من الذنوب وترحمى »
إن تقبلــى عذرى فلست بعائـــد حتـى تُغَـادَر فى المقابر أَعظمى

وحرصا من الشاعر على رضا هذه المحبوبة ركز على أسلوب الخطاب فى الأبيات الاخيرة ولم يستغل أسلوب الالتفات مثلما فعل فى الأجزاء الاخرى من القصيدة ، فالأبيات العشرة الاخيرة لا يخلو بيت منها من الخطاب الموجه الى حبيبته .

وعبر بكلمة « الأجذم » حتى يصور مدى العقاب الذى يستحقه إن أساء اليها حيث تخيل نفسه نهبا لمرض الجذام تتاكل أطرافه ويذوق الالم .

وقد تبدو الخاتمة غير موفقة حيث يفقد الشاعر أمله ، ولكن المتأمل للبيتين الأخيرين يرى أن صياغة الشاعر الفنية والنحوية تفتح افاق الامل أمام الشاعر . فحين يقول « إن تقبلى عذرى » البيت « يصوغ هذا البيت فى أسلوب الشرط والجواب ، وأداة الشرط (ان) وهى « للشك » فهل يشك الشاعر فى قبول العذر ؟

إن الشك أحيانا يكون طريقا لليقين وهو هنا ضرورة فنية ونفسية لاستثارة عاطفة المحبوبة وجلب رضاها والتأكد من ذلك .

وفى تصوره لإساءة محبوبته يصوغ هذا التصور فى أسلوب الشرط والجواب ولكن يجعل أداة الشرط لو وهى أداة امتناع لامتناع أى أنه يعلق عدما على عدم ، أو يربط مستحيلا بمستحيل فقطع اليد لن يتحقق لأن الإساءة لن تقع . وفى ذلك تصور بهيج لمستقبل الحب الذى يحرص الشاعر على تحقيقه .

إن تقبلــى عذرى فلست بعائـــد حتـى تغـادر فى المقابـر أعظمـى
لو كفـى اليمنـى سأتك قطعتهـــا ولذقت بعد رضاك عيش الاجذم

- جـ -

المعجم الاسلامى وأثره فى تشكيل التجربة :

إن الشعر نتاج البيئة ، ينبع من تربيتها ، ويعبر عن أمانيها وقد يتجاوز واقعها ويستشرف معالم مستقبلها .

والإسلام غير المجتمع العربى حيث أحدث ثورة فى شكل الحياة العامة ، وفى المضامين الشعرية ، وظهر هذا جليا فى أشعار الكثيرين فى كل غرض اتجهوا اليه ، حتى الغزل ، رأينا ظلال الإسلام تكسوه ، واختلفت القيم الفنية فى الشعر فى ظلال الإسلام عن القيم الفنية فيه فى العصر الجاهلى « ومن المخالفة لطبائع الاشياء أن تكون الطبقة الفنية التى كونها الشعر العربى فى هذه الحياة الجديدة مماثلة للطبقة الفنية الجاهلية تمام المماثلة ، فقد اختلفت الحياة فى ينابيعها ، وأصبح العربى يعيش معيشة جديدة ، ويقع تحت مؤثرات دينية وحضارية لم يكن يعرفها فى الجاهلية ، ولذلك تبدلت نفسيته ، وفرق بعيد بين نفسية وثنى ونفسية مسلم يؤمن بالله واليوم الاخر ، ويستشعر السعادة فيما يؤديه من تقوى وعبادة »[1] .

والى جانب هذا المؤثر العام نجد أن بعض الظروف التى أحاطت بعمر بن أبى ربيعة ، وكذلك بعض الصفات الوراثية التى كونت مزاجه جعلت منه شاعر الغزل الذى يتكون نسيجه اللغوى من لبنات اسلامية ، إنه كاد يجمع بين الضدين !!!

- فوالده كان على صلة قوية بالرسول عليه السلام « ويقال إن الرسول اقترض منه بضعة عشر ألفا يستعين بها فى موقعة حنين ، ويقال إنه كان يملك عبيدا من الحبشة كثيرين وعرض على رسول الله أن يستخدمهم فى غزو ثقيف فأبى ذلك وولاه الرسول ولاية فى اليمن على مقاطعة تسمى « الجَند »[1] واتفقت أقوال كثيرة على نسكه فى مشيبه وأعراضه عما كان يقبل عليه فى شبابه فكان يلوم من يحدث امرأة فى الطواف ، وبلغ من اعراضه عن الغزل أنه أقسم لا ينظمن بيتا الا أعتق به عبدا أو جارية »[2] .

فهذه المؤثرات الخاصة الى جانب المؤثرات الوراثية مع جو العصر وتغير البيئة قد ساعدت على تكوين هذا المعجم الشعرى عند عمر بن أبى ربيعة .

ولنتأمل النص مرة أخرى . فهو الترجمة الحقيقية لنفسية صاحبه ، وهو الشاهد الاول والاخير على ما اتجهنا اليه من تجلية للقيم فى الشعر العربى على ضوء المعايير الاسلامية فى الفن ، وكل مناحى الحياة .

- فالالفاظ المشتقة من المعجم الاسلامى ، والتى تعد من مستحدثات البيئة العربية يموج بها هذا النص .

---

(١) انظر : التطور والتجديد فى الشعر الاموى ص ٢٢٠ .
(٢) انظر المصدر السابق والطبرى جـ٣/ ٣٨٦ والاغانى جـ١ صـ٦٥ .
(٣) عباس العقاد ، شاعر الغزل صـ١١ .

• فالقصيدة تبدأ « باسم الاله » والمنهج الاسلامى يؤكد أن « كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر » فهل أدرك « عمر » هذه الحقيقة فكانت بدايته لقصيدته ابتهالا خفيا ، وضراعة وجدانية أن يحفظ الله له هذا الحب ، أو أن هذه البداية اعلان غير مباشر عن طبيعة هذه العلاقة بين المحب والمحبوب ، فهى علاقة مباركة ، قائمة على أساس من الحب الطاهر العفيف : وهى علاقة مستمرة لا تنقطع لانها بدأت باسم الاله .. والله من صفته الدوام .

ونلاحظ أن الشاعر لم يتحدث عن محبوبته حديثا حِسّيا فيه مجون واباحة ، مما يقوى من تفسيرنا لافتتاحية هذه القصيدة .

وكلمة « بأمانة » تؤدى دورها فهى احتراس ينفى به الشاعر أى وهم تقع فريسته المحبوبة ، أليست الأمانة صفة إسلامية من شأنها أن تعانق كل سلوك وكل كلمة ، وكل أمنية تطوف بوجدان الانسان ؟ إنها منهج اسلامى دعا اليه المصطفى صلى الله عليه وسلم فى قوله « أدّ الامانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » .

وتأمل البيت الثالث اليس شطره الأول هو التحية نفسها التى يتفوه بها كل مسلم ؟ أليست هذه التحية من منجزات العصر الاسلامى فى اللغة ، ومن مستحدثات البيئة الجديدة ؟.

ألا يحمد الشاعر على ذلك وهو يشارك بفنه فى ترسيخ دعائم هذه اللغة الجديدة وافشاء هذه القيم السلوكية المنبثقة من تقاليد المجتمع الجديد ؟.

وفى البيت الرابع نجده يقول :

« من عاشق كِلْف يبوء بذنبه   صب الفؤاد معاقب لم يظلم »

وفى آخر القصيدة يقول :

إن تقبلى عذرى فلست بعائد   حتى تغادر فى المقابر أعظمى »

فهذه العبارات يبوء بذنبه ، معاقب لم يظلم ، إن تقبلى عذرى ، تمثل حداثة لفظية ومعنوية ، وتمثل تطورا فى نفسية الانسان العربى ، ففن الاعتذار لم يتألق فى الشعر الجاهلى كالفخر والمدح وبقية أغراض الشعر ، وذلك يرجع الى أن العربى كان متغطرسا تسيطر عليه حمية الجاهلية الأولى ، وتتحكم فيه نوازع فردية تؤمن بالتسلط والظلم وعدم التسامح وعدم الاعتذار مهما كان مخطئا

والامر هنا على العكس تماما ، فالشاعر يعترف بانه يبوء بذنبه ويقر بأنه معاقب ، وهو لم يرتكب ظلما ، أين هذا السلوك من سلوك الشاعر الجاهلى الذى يرفض الاعتذار ، ويدعو الى الظلم ، ويتعالى فوق العقاب ؟.

والشاعر هنا يتحدث الى امرأة ، والبون شاسع بين موقف الجاهليين من المرأة وموقف الإسلاميين .

واذا أردنا أن ندلل على موقف عمر الغزلى وأنه صبغ بالصبغة الجديدة ، فلنبحث عن المرأة التى فتش عنها ، إنه لم يتغزل الا فى ذوات الحسب والثراء والمكانة الاجتماعية ومنهن ، « عائشة بنت ابن عبد الله وحفيدة أبى بكر الصديق من جهة أمها » وزوجة مصعب بن الزبير ، وصاحبة الشهرة المستفيضة بالترف والعبث بالمال .

ومنهن « الثريا » وتعد أحظى حسانه عنده وهى بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس ، ولها من الدور والرياض والمال حظ موفور .

ومنهن « السيدة سكينة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، ولهما فى النسب والثراء مكان لا يعلوه فى زمانهما مكان .

ومنهن زينب بنت موسى ، وهند بنت الحارث المرية .

فهذه الاسماء تفسر لنا طبيعة غزل ابن ربيعة وهى الإعجاب والهيام الشعرى وتقديس الجمال .

وهذه الاسماء تجعلنا نرفض هذه الصورة الماجنة المبالغة فى تصور المجون عند عمر بن أبى ربيعة .

ونمضى فى قراءة القصيدة فى ضوء المعجم الإسلامى لنكتشف هذه الأصالة الشعرية فنجد الشاعر يقول .

لا تقتلينـــى يا عثيـــم فإننـــى أخشى عليك عقاب ربك فى دمـى

فى هذا البيت أصداء قرانية نجد مصدرها فى قوله سبحانه .

« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما »[1] .

والرحمة والتعطف من لبنات اللغة الإسلامية ، وذكر الاثم عقب القتل من مصطلحات اللغة الإسلامية كذلك .

(١) سورة النساء الاية ٩٣ .

وجد الشاعر فى قسمه يذكر ثلاثة أبيات كلها من مستحدثات القيم الاسلامية اللغوية والمعنوية والسلوكية .

فهذه الالفاظ (البعث ، النبى محمد ، الاسلام ، النور ، التهليل ، الجحيج ، التكبير ، المقام ، الركن ، المسجد الاقصى ، المبارك ، الطور) هل ذكرت بهذه الكثافة فى شعر الغزل قبل ذلك ؟ لم يحدث هذا اطلاقا ، وذلك يرجع ما ذهبت اليه من تفسير جديد للتجربة فى هذه القصيدة ، فالتجربة هنا شمولية لا تنحصر فى التشوق الى امرأة خاصة .

فالمراة هنا رمز فنى والمعنى كما قال النقاد القدامى « فى بطن الشاعر

والتعبير بقوله « دين القيم » مستمد من قول الله سبحانه » .

قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيماً - ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين[1] .

ووصف المسجد الاقصى بقوله « المبارك » مقتبس من قول الله سبحانه « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله »[2] .

والقسم بالطور مقتبس من قول الله سبحانه « والطور . وكتاب مسطور . فى رَقّ منشور »[3] .

والشاعر لا يتركنا نفسر تجربته فى ضوء الاسلام ، فقد نخطىء التفسير وقد تغيم الرؤية أمامنا - إذ نجده بعد أن يعرض لملامحه السلوكية فى عدم خيانة العهد ، وعدم اشراك غيرها فى الحب ، وأنه يخلط الحياء بالعفة والتكرم ، ويرعى الامانة ، ولا يخون الصديق ، بعد أن يعرض لهذه الملامح يؤكد ان هذا السلوك سلوك الانسان المسلم وقال « وذاك فعل المسلم » والتعبير بلفظ « فعل » يؤكد أن منهج المسلم سلوك عملى وليس إدعاءً قوليا . ألا يتفق هذا مع دعوة القران الى مطابقة القول للفعل فى قوله سبحانه « كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » سورة الصف اية ٣ .

(١) سورة الانعام الاية ١٦١ .
(٢) سورة الاسراء الاية ١ .
(٣) سورة الطور الايات ١ ، ٢ ، ٣

هل هناك اعتراف من الشاعر أصدق من قوله « وذاك فعل المسلم » ؟ ونلمح هذا الخيط الاسلامى فى قصائد عديدة منتشرة فى ديوانه منها قوله :

إن الـــوشاة كثيـــر إن أطعتهـــم   لا يرقبـــون بنـــا إلّا ولا ذممـــا

وهذا المعنى مقتبس من قوله سبحانه فى سورة التوبة « لا يرقبون فيكم إلّا ولاذمة » .

وقوله :

« ليت شعرى يا بكر هل كان هذا   أم يراه الا له بالغيب رجمـــا »

فيه تأثر بقول الله سبحانه فى سورة الكهف « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب » اية ٢٢ .

وقوله :

« صَـدَّ عمـدا فبـاء إذ صَدَّعَنـىً   يا خليلـى بإثمـه وبإثمـــى »

فيه تأثر بقوله سبحانه فى سورة المائدة . « إنى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » اية ٢٩ .

وقوله :

قالت نعـــم فتنكبـــى بى إنـــه   ذرب اللسان إخالـــه لم يسلـــم
علمـــى به والله يغفـــر ذنبـــه   فيمـــا بدا لى ذو هوى متـــقسم

فعيوب المحبوب هنا تتمثل فى اتهام محبوبته له بأنه ذرب اللسان ، وذو هوى متقسم غير مخلص فى حبه وتعلل هذه العيوب بأنه لم يتشرب مبادىء الإسلام فكأنه والكافر سواء « إخاله لم يسلم » « والله يغفر ذنبه »

- والتوبة مصطلح اسلامى وعلاج لنفس المسلم من أمراض كثيرة . و« المليك المنعم و« جناية الذنوب » « والرحمة » من رصيد اللغة الاسلامية الجديدة .

والتعبير بقوله « ولذقت بعد رضاك عيش الاجذم » فيه امتزاج بالحساسية الجديدة للغة الفعل ذاق ومشتقاته لم يستعمل فى القران الكريم الا فى مواطن الايلام والسخرية والتشفى ويتضح هذا فى آيات كثيرة منها قوله فى سورة النساء . « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارا . كلمّا نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما » اية ٥٦ .

وقوله فى سورة ال عمران : « كل نفس ذائقة الموت » اية (١٨٥)

وقوله فى سورة الحج : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » اية (٢٢).

وقوله فى سورة « الدخان » : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم – ذُق إنك أنت العزيز الكريم » اية (٤٨ – ٤٩) .

وقوله فى سورة الصافات : « فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون » وقوله « إنكم لذائقو العذاب الاليم » اية ٣١ ، ٣٨ .

إن هذا الحس اللغوى ينبىء عن شاعرية عمر بن أبى ربيعة وأصالته ، وتجاوبه مع تطور ايقاع العصر وثقافته وقيمه الفنية والسلوكية .

هل نسمع هذا الصوت الشعرى من شاعر غير اسلامى ! وبخاصة فى فن الغزل ومن شاعر الغزل المفتن « عمر بن أبى ربيعة » ؟؟.

• أبعاد الشخصية فى ظلال الإسلام

« على زين العابدين بن الحسين »

« رؤية شعرية « للفرزدق »

هذا الذى تعرفُ البطحاءُ وطأتَه — والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَــــرمُ
هذا ابـن خيـر عبـاد الله كلهــم — هذا التَّقى النَّقى الطاهرُ العَلَــمُ
هذا ابـن فاطمـة إن كنت جاهلـه — بِجَـدِّه أنبيـاءُ الله قد خُتِمــــوا
ولــيس قولُك من هذا بضائــره — العُرْبُ تَعْرِفُ من أنكَرْتَ والعَجَمُ
إذا رأتــه قريش قال قائلُهـــا — إلـى مكـارِمِ هذا يَنْتَهــى الكَــرَمُ
يغضى حياء ويُغْضَـى من مهابتـه — فمــا يُكلَّــم إلا حيــن يَبْــتَسمُ
بكفـه خيـزُرانٌ ريحهــا عَيــقٌ — من كف أرْوَعَ فى عِرنينـه شَـمَـمُ

---

(١) البطحاء : المراد بها الارض ، وطأته : وقع خطواته على الارض ، الحل ما جاوز الحرم .
(٢) ابن خير عباد الله المراد ابن الحسين وفى ذلك مبالغة من الشاعر .
(٣) فاطمة : فاطمة الزهراء بنت النبى عليه السلام .
(٤) بضائر : يلحق به الضرر .
(٥) يغضى : يخفض صوته ، ويكف عن بصره .
(٦) عق تفوح منه رائحة الطيب ، العرنين : الانف تحت مجتمع الحاجبين وهو أول الانف حيث يكون فيه الشمم ، والشمم ارتفاع فى قصبة الانف مع استواء اعلاه وهذه الصفة ممدوحة عند العرب ويكنى بها عن العزة والاباء ، والاروع من الرجال : الذى يعجبك حسنة .

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
الله شرفه قدما وعظمَّه ... جرى بذاك له فى لوحه القلم
أى الخلائق ليست فى رقابهم ... لأولية هذا أو له نعم
من يشكر الله يشكر أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الامم
كلتا يديه غياث عم نفعهما ... تستوكفان ولا يعروهما عدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنان : حسن الخلق والشيم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم
ما قال : لا قط إلا فى تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم
لا يخلف الوعد مأمون نقيبته ... رحب الفناء أريب حين يعتزم
عم البرية بالاحسان فانقشعت ... عنها الغيابة والإملاق والعدم
ينمى إلى ذروة الدين التى قصرت ... عنها الاكف وعن إدراكها القدم

(١) الحطيم : جدار حجر الكعبة .

(٢) أولية هذا : المراد اباؤه وأجداده .
(٣) غياث : مطر . والمراد يداه تغيثان الناس ، تستوكفان : يطلب منهما الخير فتهطلان كالمطر يعروهما : يلم بهما .
(٤) بوادره : ما يبدو منه عند حدته وهو ثورته وغضبه .
(٥) فدحوا : أصيبوا ، الشمائل : الطباع .
(٦) النقيبة : النفس والمراد : مبارك النفس . أو ميمون الامر أو ميمون المشورة .
(٧) انقشعت : زالت ، الاملاق ، الفقر .
(٨) ذروة الشيء : قمته .

من جده دان فضل الأنبيـــاء له ... وفضل أمتــــــه دانت له الأمم

مشتقـــة من رسول الله نبعتـــه ... طابت مغارسه والخيـم والشيــم

ينشق ثوب الضحى عن نور غدته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم

من معشر حبهـم ديـن وبغضهـم ... كفـر وقربهـم منجـى ومعــتصم

مقــدم بعــد ذكــر الله ذكرهــم ... فى كل بدء ومختــوم به الكلــم

إن عد أهل التقـى كانـوا أئمتهـم ... أو قيل من خير أهل الارض قيل همُ

لا يستطيـع جواد بعــد جودهــم ... ولا يدانيهــم قوم وإن كرمـــوا

يستدفـع الشرو البلــوى بحبهــم ... ويستـــرب به الإحسان والنعــم

لا ينقص العسر بسطا من أكفهـم ... سيان ذلك إن أثـروا وإن عدمـوا

يأبى لهـم أن يحل الـذم ساحتهـم ... خيـم كريـم وأيــدٍ بالنــدى ديَـم

---

(١) نبعته : النبع : شجر تتخذ منه القسى ، وتتخذ من أغصانه السهام الخيم : الطبيعة والسجية .

(٢) جواد : كريم .

(٣) يسترب : يستزاد : يقال رب النعمة أى زادها ، والربى : النعمة والمريب : المنعم عليه .

(٤) خيم كريم : طبع محمود ، ديم : جمع ديمة وهى السحابة والمراد أن أيديهم مستمرة فى العطاء بلا انقطاع .

مصـــادر النـــص :

● تنسب هذه القصيدة « للحزين الكنانى » ولداود بن مسلم « وللعين المنقرى » ود/زكى مبارك نسبها للفرزدق وعدها « شجاعة صوفية وقال إنها بداية الصدق فى المدائح النبوية » وفى كتاب « تاريخ الادب العربى » لكارل بروكلمان « ويقول » وتوجد قصيدة الفرزدق فى زين العابدين مخطوطة فى « جوتا » ٢٦/١٤ ، ليدن ٥٩٠ ، باريس أول ٢١٢٠٥,٦ ، ٤٢٦١,٥ ، بوهار ٤٣٦ ، قم ٢ وطبعت على الحجر فى طهران سنة ١٢٧٥ هـ ، وانظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، وحياة الحيوان للدميرى ، ١ ـ ٩ ، ومرآة الجنان لليافعى ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ، وهذه الشواهد ترجح أن القصيدة للفرزدق وليست لغيره .

« الشاعر : حيـاة وفنـا »

« الفرزدق » من شعراء العصر الأموى ، وهو أحد ثلاثة شعراء تركوا آثارهم الشعرية ولمساتهم الفنية فى العصر الأموى كله وما بعده أيضا بما قدموه من فن خالص ، يتسم بالبيان السليم ، ويرتكز على التعامل مع الفن الشعرى وحده ، وتجسم هذا فى النقائض التى تبادلها الفرزدق مع جرير ، وشارك فى إذكائها الأخطل ، « والفرزدق » يسمى « همام بن غالب بن صعصعة ، وينتسب إلى تميم ، ولقب بالفرزدق لغلظه وقصره ، شبه بالفتيتة التى تشربها النساء وهى الفرزدقة وكنيته « أبو فراس » (ولد بالبصرة كعبة العلم والأدب ، وعنى أبوه بتربيته وتنشئته نشأة أدبية) .

وكان جده « صعصعة بن ناجية عظم القدر فى الجاهلية ، واشترى ثلاثين موءودة إلى أن جاء الله عز وجل بالاسلام ، منهن بنت لقيس بن عاصم المنقرى ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم »(٢)

ونوه الفرزدق فى فخره بجده الذى فدى أربعمائة من المؤودات وقيل دون ذلك ، قال :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى   متى تخلف الجوزاء والنجم يمطر
أجاربنـات الوائدين ومن يجـر   على القبر يعلم أنه غير مخفر

وقد روى أن صعصعة أحد من أتوا النبى فى وفد تميم ، وهذه الأصالة فى الحسب والمكانة الاجتماعية لم تقتصر على جد الفرزدق ولكن غالب أباه كان سيد بادية تميم . وكان فى غاية الكرم ، ومما يروى من جوده السيال أن نفرا اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم وقالوا : إن أبا الفرزدق قدمه الى على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ هـ ويذكر ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » بعض أخوته وأخواته وهم هميم بن غالب ، والأخطل ، وجعثن وهى كانت تتصف بالصدق .

ويحكى أنه مكث زمانه لا يولد له فعيرته امرأته النواربذ لك فقال :

وقـالت أراه واحـدا لا أخـا له   يؤملـه فى الوارثيـن الأباعـد
لعلك يومـا أن تريـنـى كأنمـا   بنى حوالـى الأسود الحـوارد
فان تميما قبل أن يلد الـحصى   أقام زمانا وهو فى الناس واحد

فولد له بعد ذلك لبطه . وسبطه . وخبطه ، وركضه من النوار .

ومن هذه الاسماء ندرك الطبع الغليظ الذى فطر عليه الفرزدق ولا نستغرب لتفوقه فى الفخر وفى الهجاء لانهما ثمرتان طبيعيتان لصفاته وسجاياه .

وقد ترجع هذه الغلظة إلى إحساسه بالتفوق القبلى . ويعضد هذا التفسير أنه لم يفد على قصور بنى أمية إلا فى عهد سليمان بن عبد الملك حيث كان يشعر بذاته وببعض التفوق على أسرة بنى أمية .

ومن هنا نفسر هذه المواجهة الحادة بينه وبين هشام بن عبد الملك التى ترجمها الفرزدق فى هذه القصيدة الرائعة . فهى من هذا المنحى تصبح تجسيما لنفسية الفرزدق الصلبة التى واجهت هشام بن عبد الملك بهذه القصيدة التى ترسم صورة صادقة لعلى بن الحسين برغم أنها جلبت عليه الإيذاء .

ود . شوقى ضيف يؤيد من يقول إن هذه القصيدة ليست من شعر الفرزدق ، لأنه ليس شيعيا ، وهو دليل لا يرقى إلى منطق الحجة القاطعة فليس من الضرورى أن يكون الشاعر متشيعا قلبا وقالبا حتى يكتب رأيه ، فعلى بن الحسين مسلم من آل البيت ينتسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فمدحه بدافع من شعوره الدينى ، ولا يمنع هذا من تعصبه لقبيلته .

وسلوكياته الفاسدة لا تحول بينه وبين قول مثل هذا النص . فقد يعد هذا توبة منه ، أو رغبة فى التوبة . ومتى ثبت الشعراء على حال ؟

وفى مدائحه نجد المعجم الدينى الاسلامى يسيطر عليه . فمن قصيدة له يمدح يزيد بن عبد الملك يقول فيها :

ولو كان بعد المصطفى من عباده ... نبى لهم منهم لامر العزائم
لكنت الذى يختاره الله بعده ... لحمل الأمانات الثقال العظائم
ورثتم خليل الله كل خزانة ... وكل كتاب بالنبوة قائم
وحبلك حبل الله من يعتصم به ... إذا ناله يأخذ به حبل سالم [1]

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ص٢٩٨ .

وفى مدح سليمان بن عبد الملك يقول :

جعل الاله لنا خلافته ... برء القروح وعصمة الجبر
كم حل عنا عدل سنته ... من مغرم ثقل ومن إصر

ويقول فى مدح الحجاج :

ولم أركا لحجاج عونا على التقى ... ولا طالبا يوما طريدة تابل

فهذه المعانى التى أضفاها الفرزدق على أشخاص ليست لهم القداسة الدينية التى يتمتع بها على بن الحسين ، كيف لا نقبلها منه وهو يمدح بها عليا بن الحسين نفسه ؟

١٩) فهى حينما توجه إلى « على زين العابدين » تكون واقعية وصادقة وحينما توجه إلى غيره يشوبها الطمع فى النوال كما فى مدحه ليزيد وسليمان ، أو تكون بدافع من الخوف كما فى مدحه للحجاج .. أو تكون من باب التقليد المحض لافكار الشيعة . فقد اشترك الفرزدق مع غيره من شعراء « الحزب الحاكم » فى ادعائهم بأن الخليفة الأموى هو المهدى المنتظر الذى جاء لينشر راية العدل والسلام بين الناس تأثرا منهم بالتصور الشيعى لائمتهم ردا منهم على دعوى الشيعة بمثلها .

....

وأما عن فنه . فيصفه ابن قتيبة بأربع صفات فيقول :

كان الفرزدق معنًا ، مفناً يقول فى كل شيء ، وسريع الجواب وأراد ابن قتيبة أن يدلل على بديهته الحاضرة وسرعة جوابه . فأتى بأكثر من عشرين مثالا ورواية كلها تؤكد ما ذهب اليه .

ومعنى « معن » ذو عنن واعتراض أى انه فصيح يدخل فى كل شيء ومعنى « مفن » يفتن فى الكلام أى يشتق فى فن بعد فن .

وقال أبو عمر وبن العلاء كان الفرزدق يشبه من شعراء الجاهلية « بزهير » وقد عده اللغويون أحد مصادر اللغة حتى قالوا :

« لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب »

وقالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس »

وهذه الشهادة تظهر قيمة فن الفرزدق شكلا ومضمونا فهو وعاء للغة الصحيحة ، وهو ينطوى على حقائق تاريخية تتعلق بأيام العرب وأخبارهم ووقائعهم ، وفى نقائضه مع جرير والأخطل أكبر شاهد على ذلك .

وأشعاره كما ينطق ديوانه . وكما ظهر فى نماذج من مدائحه تفيض بالمعجم الاسلامى برغم أن طباعه كانت تميل إلى الفطرة الجاهلية التى تعظم القبيلة وتفتخر بالحب ، وتهجو بصفات حسية بعيدة عن روح الإسلام .

ونراه برغم هذه الطباع يكثر من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب كما يكثر من الإشارة الى قصص الانبياء .

« وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ ، وقوة الوصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة وهو ضخم ناشىء من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التى قلما تعرف الرقة واللين »[1] وقد اختلف فى تاريخ وفاته فقال ابن قتيبة ومات وقد قارب المائة وقال د . محمد داود . توفى عام ١١٠ هـ فى أحد الاقوال عن ٩١ عاما . وقال د . شوقى ضيف « وأخيرا وافاه القدر سنة ١١٤ هذا ويذكر انه ولد سنة عشرين للهجرة » وأرى انه مات ما بين التسعين والمائة وليس هناك نص يحدد تاريخ الميلاد والوفاه .

ونحن فى دراستنا نتعامل مع العصر ومع أحداث حياته ولا يهمنا تحديد تاريخ المولد أو الوفاة .

« منبــع التجربـــة » :

كل تجربة شعرية لها ملابساتها ، ومنابعها الأولى التى تنطلق منها مشاعر الشاعر وانفعالاته ثم تحفر مجراها بعد ذلك ، وربما تتعدد روافدها ، وتتعمق أنهارها ، ويبقى المنبع هو نقطة الانطلاق الاولى ، وهذه التجربة التى صورها الفرزدق كانت ردَّ فعل اندفع معه الشاعر على فطرته يجسد مشاعره التى كانت تكمن فى داخله ولا يقدر على البوح بها تجاه آل البيت » ، وأبناء على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولا يعنى هذا أنه كان مخلصا لمبادىء الشيعة كما كان « الكميت بن زيد الاسدى » ود . زكى مبارك يقول فى مناسبة هذا النص « ونشير الآن إلى أن الفرزدق اتفق له ان يقف موقفا يمدح فيه الرسول وعترته »[1]

---

(١) د . شوقى ضيف : العصر الاسلامى ص ٢٧٦ .
(١) د . زكى مبارك المدائح النبوية .

وتأمل كلمة « اتفق » فذلك يعنى أن مدح الرسول وآل البيت لا يمثل تيارا أساسيا فى فكر الفرزدق . فهو شاعر الأمويين ومدائحه متعددة فيهم ، وهو لم يخلص لسوى قبيلته « تميم » ، ويروى د . زكى مبارك عن مهذب الاغانى جـ ٥ ص ١٤٩ قائلا « فقد حدثوا انه حج بعد ما كبر ، وقد أتت له سبعون سنة » يقصد الفرزدق .

وكان هشام بن عبد الملك قد حج فى ذلك العام فرأى على بن الحسين رضى الله عنهما فى غمار الناس فى الطواف فقال : من هذا الشاب الذى تبرق أسرة وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى وجوهها ؟ فقالوا : هذا « على بن الحسين »

وفى كتاب « وفيات الاعيان » جـ ٣ ص ١٤٢ تأخذ هذه الرواية صورة المواجهة بين الفرزدق وبين هشام بن عبد الملك فيحكى « أنه لما حج هشام فى أيام أبيه طاف وجهد أن يصل الى الحجر ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر فجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أعيان الشام ، فبينما هو كذلك اذ أقبل زين العابدين على بن الحسين ، وكان من أحسن الناس وجها ، وأطيبهم أرجا ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى الى الحجر تنحى له الناس حتى استلم فقال رجل من اهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال : هشام لا أعرفه : مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيملكونه ، وكان الفرزدق حاضرا فقال : أنا أعرفه

فقال : من هو يا أبا فراس فقال الفرزدق « هذا الذى تعرف البطحاء وطأته » الى آخر القصيدة التى تمثل تجربة شعرية ثورية سيطر عليها الانفعال ، وجمحت بها العاصفة ، وقد عرض الفرزدق نفسه فيها لغضب هشام بن عبد الملك فحبس وذاق أفانين العذاب فى الحبس وقد أنفذ له « زين العابدين » وهو فى هذه المحنة اثنى عشر ألف درهم فردها وقال « مدحته لله تعالى لا للعطاء » .

« القراءة النقدية للنـــص » :
« أبعــاد التجـربة »

فى هذا النص تتعدد أبعاد التجربة الشعرية شأنها فى كل نص جيد . وهذه الابعاد تتمثل فى :

١ ـ البعد الفكرى : وهو يتضمن ثلاثة اتجاهات .

أ ـ ثورة الموقف وحدة المواجهة

ب ـ ملامح الشخصية وأبعادها
(الحسية ـ الروحية ـ الاجتماعية)
جـ ـ آل البيت والصورة المثلى للمجتمع .

٢ ـ البعد الجمالى وكشفه عن معالم التجربة .

٣ ـ المعجم الاسلامى وأثره فى تشكيل التجربة .

....

أولا : البعد الفكرى
أ ـ ثورة الموقف وحدة المواجهة :

حين نتأمل مطلع النص ، ونتنقل فى عوالمه ندرك أن الشاعر يمتلك شجاعة الرأى ، وصدق الفنان ، حيث لم يستطع ان يكتم انفعالاته ، ولا يسيطر على عاطفته بل انطلق فى شاعرية ثائرة ، وجدة قادرة . مجيبا على المستفسر عن هذا الذى هابه الناس ، وبدأ فى إنشاد القصيدة متحديا سكوت « هشام عبد الملك » وادعاءه عدم معرفة « على بن الحسين » فقال :

هذا الذى تعرفه البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وفى هذا المفتتح تعريض ساخر بهشام بن عبد الملك ، وبالسائل لأن الأرض كلها تعرف هذا الممدوح ، وتعرف خطوته لانها متميزة عن سائر الخطا التى تدب عليها . حتى وان كانت خطا هشام بن عبد الملك فالجماد والشخوص الطبيعية والأمكنة تشعر بوجوده وتعرف قدره . ولا يعرفه ابن عبد الملك فاى سخرية وتهكم اكثر من هذا ؟

وتشتد الثورة ويحتدم الموقف حين يذكر الشاعر نسب الممدوح فى قوله :

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقىُّ النقىُّ الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

وفى ذلك تعريض « بهشام بن عبد الملك » لانه يريد ان يقول له : ان من انكرت معرفته افضل منك حسبا ، واعم منك ذكرا ، واصفى واظهر نسبا ولا يترك الشاعر لنا فسحة للتخيل والتفسير بل يكشف كل شىء فيقول :

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من انكرت والعجم

ويشعر أن هذا تعميم فى الحكم فينوه بقريش فهى تقصر الكلام على أصول ذلك الممدوح . وفى ذلك أيضا تعريض « بهشام » وسخرية منه .

ولا نستبعد أثر هذا المدح فى نفسية « هشام بن عبد الملك » ووقعه عليه . لأنهم كانوا يعدون مدح على وابنائه ضربا من التمرد والشغب والخروج على الدولة ، وقد عذبوا العلويين واضطهدوهم ، وما حدث فى كربلاء أصدق شاهد على هذا الاضطهاد وذلك العذاب .

وأحفاد الحسين ذاقوا من ويلات الامويين صنوف العذاب .

فزيد بن (على زين العابدين) بن الحسين . خرج ابنه على هشام بن عبد الملك بالكوفة يريد الخلافة ، وكان معه القواد والأشراف . فلما قامت الحرب انهزم عنه أصحابه ، وبقى فى جمع قليل فقاتل بهم أشد قتال وهو يقول :

أذل الحيـاة وعـــز الممـــات   وكـــلا أراه طعامـــا وبيـــلا
فان كان لابـــد من واحـــد   فسيرى الى المـوت سيـرا جميـلا

فقتل وصلب سنة ١٢١ أو ١٢٢ هـ

وبعد أربع سنوات أو خمس ثار ابنه يحيى فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخراسان ، فقتله قائد الوالى « نصر بن سيار » وصلبه سنة ١٢٥ هـ[1] .

وقد ألقى الشاعر شحنة هائلة من العواطف فى هذا المفتتح . جعل كل سامع للقصيدة أو كل قارىء لها . متعاطفا مع ثورة موقفه ، وحدة مواجهته .

ب ملامح الشخصية وأبعادها :

١ . البعد الحسى   ٢ ـ البعد الروحى   ٣ ـ البعد الاجتماعى

١ ـ البعد الحسى :

حدده الشاعر فى رسمه صورة خارجية لهيئة على بن الحسين وهى صورة تعكس ما عليه ذلك الممدوح من عز ونبل وحكمة وسكينة ووقار ، وهذه الصفات ليست كلمات يرفع بها الشاعر قدر الممدوح ولكن الله احسن خلقه . فنطقت هيئته بكل حسن ووجاهة إذا احتكمنا الى البيئة ومقاييس الوجاهة الحسية .

فالرجل يغض من صوته يدفعه الى ذلك الحياء والوقار ، والناس من هيبته لا يرفعون أصواتهم أمامه ، ولا يكلمونه إلا حين تصدر لهم إشارة فى صورة ابتسامة حانية صادقة .

يغضى حياء ويغضى من مهابته   فما يكلم إلا حين يبتسم

وتأمل هذا البيت :

بكفه خيزران رحيها عبق   من كف أروع فى عرنينه شمم

ألا يمكن أن يعبر عنه بمشهد تصويرى ؟ ولكن الصورة الحسية لن تصل إلى أعماق الحس الشعرى ، ولن تستطيع ان تفصح عن الصفات التى يضفيها الشاعر على الممدوح !!!

فالرجل مكتمل الهيبة ففى كفه خيزران إشارة الى القوة ، وهو « حسن الوجه » وانفه فيه جمال عربى خالص فقصبته مرتفعة وأعلاه مستو ، وسر هذا الجمال الخلقى انه يؤكد صفات الشجاعة والإباء والأنفة ، واى جمال فوق جمال الخَلْق والخُلُق ؟

وكأن الشاعر أراد أن يجذب كل المدركات الحسية فى الانسان تجاه ممدوحه . فوصف صوته ، وابتسامته ، ووجهه ، وأنفه ، وكفه ، ونفذ الى مصدر العطر فى خيزرانه وقال : إن العطر ينبعث من كفه . وفى ذلك تكريم ما بعده تكريم ، فكأن دماءه عطر ينساب فى شرايينه ، وينفذ الى الأشياء من حوله فيزيدها بهاء وروعة .

والبعد الحسى لهذه الشخصية لا يقتصر وقعه الجمالى على الكائنات العاقلة ، بل تجاوبت معه الجمادات إذ شخصها الشاعر ومنحها الاحساس بالجمال ، فركن الحطيم يتعلق بالممدوح تعلق الهائم الولهان المعترف بالفضل . فكفه التى وهبت العطر للخيزران تهب البركة والشفافية لركن الحطيم حينما تستلمه .

وتكتمل الصورة الحسية حينما يصور الشاعر وجه الممدوح تصويرا فنيا بارعا فى قوله :

ينشق ثوب الدجى عن نورغرته .. كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم والشاعر بهذه الصورة الحسية قد شارك كل المدركات الحسية فى الانسان فى صنع هذه الصورة او فى اكتشافها فى براعة فنية آسرة .

البعد الروحى :

والقصيدة كلها يمكن أن تكون نسيجا متصلا يشارك فى إبراز هذا البعد الذى يمثل لب الشخصية .

والأبيات التى تحدد هذا البعد هى الابيات (٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠)

الله شرفـه قِدْمـا وعظمـه ... جرى بذاك له فى لوحـة القلـم
أىّ الخلائق ليست فى رقابهـم ... لاوليـةً هذا او له نعـم
من يشكر الله يشكر اوليـةً ذا ... فالدين من بيت هذا نالـه الامم
ينمى إلى ذروة الدين التى قصرت ... عنها الأكف وعن إدراكها القدم
من جده دان فضل الانبيـاء له ... وفضل أمتـه دانت له الامـم
مشتقـة من رسول الله نبعتـه ... طابت مغارسة والخيم والشيم

وقد بنى الشاعر هذا البعد على اسس جوهرية تقترب من الشعور الصوفى ، إنه يتفق مع مبدأ المتصوفين فى « الحقيقة المحمدية » فهى كما يقول ابن عربى « العماد الذى قامت عليه قبة الوجود » .

والشاعر أدرك هذا بفطرته أو بعاطفته تجاه آل البيت قبل أن يعرف مبدأ الصوفيين فى « الحقيقة المحمدية » .

فالشاعر يعلن أن الله شرف الممدوح « على بن الحسين » منذ القدم وقد جرى بذاك القلم فى اللوح المحفوظ .

ويؤكد شعوره بمبدأ « الحقيقة المحمدية » حين يسوق الحقيقة فى ثوب الاستفهام ويعلن أن الخلائق جميعا فى عنقها احساس بالفضل الذى عمروا به من على بن الحسين ومن أبيه ومن جده « ولفظ » أولية من معجم الصوفيين .

وأعتقد أن هذا الشعور عند الفرزدق هو الذى جعل د /زكى مبارك يقول فى غير يقين وقد يمكن القول بأن مدح الفرزدق للنبى وأهله هو بداية الصدق فى المدائح النبوية « وقد وصف هذا المدح بأنه شجاعة صوفية من الفرزدق ، ولكن لا نستطيع ان نجزم بان الفرزدق كان متصوفا لأن سلوكه وعاداته واخلاقياته تقوم حائلا دون ذلك .

● والأساس الثانى من أسس البعد الروحى يتمثل فى موقع « على بن الحسين » من الدين . فهو فى الذروة منه ، وهو نابع من بيته والأمم كلها عمها هذا الفضل العظيم ، ويومىء الشاعر الى قيمة « البيت النبوى » حين يقرر أن الدين نابع من بيتهم ، وأن الممدوح فى الذروة من هذا الدين . وأن هذه الذروة لا تستطيع لمسها الاكف ولا تصل إليها الأقدام ، وفى ذلك إعلاء من شأن الممدوح وتعريض بالأسرة الحاكمة .

وهذا المعنى قد صاغه الشاعر « أحمد شوقى » صياغة جديدة حين قال واصفا معراج الرسول عليه الصلاة والسلام .

حتى بلغت سماء لا يطار لها ... على جناح ولا يسعى على قدم

ويكمل الشاعر تصوره للبعد الروحى لشخصية على بن الحسين حين يكشف عن الجذور الظاهرة لممدوحه . نجدهُ رسول الله دان فضل الأنبياء له ، وأمته دانت لفضلها الامم ، وعوغصن إيمانى فى شجرة الرسول المباركة .

وقد اتسم تصور الشاعر لهذا البعد بالبناء الفنى الواعى . فالأسس المكونة له هى .

مكانته من الله ، موقعه من الدين ، علاقته برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى مترتبة ترتيبا شعوريا ومنطقيا برغم أن الأبيات لم تتوال بل فصل بينها ببعض الأبيات المتممة للابعاد الاخرى .

......

٣ ـ البعد الاجتماعى :

يمثل هذا البعد موقف على بن الحسين من الناس فقلوبهم معقودة على حبه ، شاهدة على صدقه ، مقرة بانتهاء مسيرة الكرم إليه وقد تمثل هذا البعد فى صفات كثيرة . فيداه غياث للناس ، وهو ينطوى على حسن الخلق والشيم ، وهو يخفف المصائب عن الناس ، ولم يعرف لسانه حرف « لا » إلا فى التشهد وهو لا يخلف الوعد ، والبرية كلها قد عمها بإحسانه فنجت من غياهب الفقر والعدم .

والشاعر بهذه الصفات التى يؤكدها واقع الممدوح . يضع أمام هشام بن عبد الملك نموذجا إنسانيا صادقا ، ويقول له من طرف خفى

كن على هذه الصفات تملك قلوب الناس
اقترب من رعيتك يفتحوا لك صدورهم قبل أعينهم

إن هذا البعد الاجتماعى شكله الشاعر فى هذه الابيات :

اذا رأته قريش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
كلتا يديه غياث عم نفعهما	تستوكفان ولا يعروهما عدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره	يزينه اثنان : حسن الخلق والشيم
حمَّال أثقال أقوام إذا فدحوا	حلو الشمائل تخلو عنده نعم
ما قال : لا قط الا فى تشهده	لولا التشهد كانت لاؤه نعم
لا يخلف الوعد مأمون نقيبته	رحب الفناء أريب حين يعتزم
عم البرية للإحسان فانقشعت	عنها الغيابة والإملاق والعدم

١ ـ الإمامية الاثنا عشرية وهم الكثرة الغالبة الآن فى باكستان وايران والعراق وسورية ولبنان وغيرها .

٢ ـ الامامية الاسماعيلية وهم فى الهند وباكستان وسورية وجنوبى أفريقية ، وكان منهم الفاطميون والقرامطة .

والشعية مبادئهم وآراؤهم ، ولم يفصل الشاعر هذه المبادىء لانها لم تكن فى ذلك الوقت قد تجلت فى مبادىء محددة أو صورة واضحة ولكن رأيناه يضفى صفات على آل البيت الذين انحدر منهم « على بن الحسين » وهذه الصفات تعد إرهاصا لبعض مبادىء الشيعة التى ظهرت بعد ذلك ، فالدين الصحيح فى حبهم ، والكفر فى بعضهم والنجاة فى قربهم ، وذكرهم بعد ذكر الله ، وهم أئمة أهل التقى وهم خير أهل الارض ، وهم الكرام الذين لا يدنو من كرمهم أحد ، وحبهم يدفع الشر والبلوى ، ويزيد الاحسان والنعم ، والعسر لا يمنعهم من الكرم ، والذم لا يحل ساحتهم فهم كرماء شرفاء .

إن الصفات السابقة فيها ايماءات وتفسيرات تحلل بعض المواقف التى اضطهد فيها آل البيت ، وكلمة « الائمة ، والمنجى ، والمعتصم » انتشرت فيما بعد فى الأوساط الشيعية ، والحكم على من يكرههم بالكفر يقترب من المذهب الشيعى ، وكلمة « البدء ، والختام ، والكلم » من معجم الفكر الشيعى .

فهل كان الشاعر متشيعا ؟ لا أعتقد ذلك . وانما هى قدرة منه على تمثل الموقف والاندماج فيه والاتحاد به .

وبذلك استطاع « الفرزدق » أن يجمع كل أطراف « البعد الفكرى » للتجربة فى قدرة فنية عجيبة سيطر عليها انفعال حار بالموقف ، وشجاعة أدبية فائقة امتزج فيها الموقف الثورى بتحليل الشخصية الإسلامية وموقفها من المجتمع المثالى الذى صوره فى رصده مسيرة الشاعر على الرغم من آل البيت .

ثانيا : البعد الجمالى وكشفه عن معالم التجربة :

حين نمضى فى قراءة النص قراءة فنية جمالية لتكشف عن معالم التجربة من جديد نرى أن الشاعر قد بنى تجربته من ألفاظ اتسمت بالسهولة على الرغم من ذلك مخالف لطبيعة الفرزدق ، فهو ينحت من صخر ، ولا يُخدع قارىء شعر الفرزدق بسهولة الفاظه فى بعض الاحيان ، بل عليه ان ينقب عن مدلولات هذه الالفاظ وسيرى ان الشاعر يتسم بالدقة اللغوية ، والكلمة فى مكانها من البيت ووضعها فى القصيدة تتفتح عن آفاق جديدة .

وابحث عن معنى كلماته وتأمل ما شعت به من معان فى هذا النص . تأمل هذه الكلمات أروع ، شمم ، غياث ، تستوكفان بوادره ، مأمون نقيبته ، الخيم ، يسترب ، وأيد بالندى ديم .

وقد بدأ الشاعر قصيدته باسم اشارة ، واسم موصول تعظيما لشخصية الممدوح ، وتأكيدا لموقفه ، والمتأمل للنص يرى أن الشاعر قد كرر اسم الإشارة (هذا) ثمانى مرات ، وهذا التكرار مع اظهار عظمة الممدوح يرسم صورة صادقة لعلى بن الحسين ، ويؤكد وجوده ، فاسم

الاشارة يعبر عن الشىء المحسوس وكذلك اسم الوصول يدل على الكائن الموجود . وهو بذلك يتيح فرصة للتأمل فى هذه الشخصية .

وفى تعامل الشاعر مع الزمن رأيناه فى حضور دائم مع الممدوح لأنه واقف امامه ، ولهذا ركز كثيرا على الزمن الحاضر ، وسيطر الفعل المضارع على الزمن الشعرى فى هذا النص مما يومىء إلى التفاعل الدائم والحركة المستمرة .

والأفعال المضارعة كلها تبدأ بالياء أو بالتاء التى تأتى فى « صيغة الغائب » فالحديث ليس موجها إلى « على زين العابدين » ولكنه موجه إلى « هشام بن عبد الملك » وهذه سمة الصدق الفنى ، لأن الممدوح لم يطلب من الشاعر مدحه ، وانما الانفعال بالموقف والوقوع فى أسر التجربة هو الذى اوحى للشاعر بذلك .

ويكرر الشاعر اسم الاشارة فى الابيات الثلاثة الاولى حرصا على شده الانتباه حتى يرى المعارضون الصورة على حقيقتها ، ونبرة الفخر والمباهاة تسيطر على الشاعر فى مدحه الصادق ، وبخاصة فى إتيانه باسم الموصول بعد اسم الاشارة .

ولقد لجأ الى التشخيص حينما قال « تعرف البطحاء وطأته » والبيت يعرفه والحل والحرم إنه بث الحياة فى الجمادات ، وخلع عليها صفات الاحياء فاذا الارض والبيت والحل والحرم كائنات عاقلة تدرك وتعرف مالا يعرفه الإنسان الذى يجهل قدر اهل الفضل والمكرمات ، والشاعر برمز بهذا الخيال الشعرى إلى مدى الحب الذى تمكن فى قلوب الناس « لعلى بن الحسين » . والطباق بين « الحلِ والحرم » يكشف عن نظرة الشاعر إلى ممدوحه فى قدرته على تقريب الاضداد ، والقضاء على المشاحنات أيا كان نوعها ، ومصدرها ، وفى « التقىِّ والنقىِّ » جناس ناقص ، والنقاء من ثمار التقوى ، ولذلك جاء بلفظ النقىِّ بعد « التقى ، وذلك ينم عن إحساس فطرى خالص واع بوظيفة اللغة .

وتأمل هذا التعبير « إلى مكارم هذا ينتهى الكرم » ألا يوحى بجو الرحلة . فالكرم فى مسيرته العربية يلقى عصا الترحال بين يدى هذا الممدوح ، وفى هذا إيماء الى بخل « هشام بن عبد الملك » لان الكرم وقف عند « على بن الحسين » . وفى تصوير دقيق يجسد الشاعر هيبة « على بن الحسين » وحياءه فى هذا البيت .

وبناء الفعل « يكلّم » للمجهول هنا تأكيد لهيبة ذلك الممدوح لانه لا يبدأ بالكلام ولكن الناس تكلمه أولا ، فهو المطلوب لا الطالب ، وهو الحكم يؤتى فى بيته .

ولم تقتصر فلسفة الحب عنده على الناس بل أصبح منبعا للعطر فعطر الخيزران استمد عبقه من كف ذلك النقى الورع فكأن عروقه تفيض بالعطر وأعصابه تنبت فيها الورود .

والفعل يكاد ابتعد بالشاعر عن المبالغة الممقوتة إذ جعل ركن الحطيم نفسه وهو له قداسته يدرك قدر ذلك الممدوح فيكاد يتعلق به شاكرا تفضله بمصافحته ، وفى ذلك مبالغة خفف من ثقلها قوله « يكاد » .

والمتأمل لتعامل الشاعر مع الزمن اللغوى نراه لا يأتى بالفعل الماضى كثيرا إلا فى المواقف التى لا يصلح فيها إلا ذلك مثل قوله :

الله شرفـه قِدمـاً وعظمـه ... جرى بذاك له فى لوحـه القلـم

فالموقف هنا حكاية تعود بنا إلى ما قبل خلق العالم المادى ، فالصيغة المناسبة هى صيغة الفعل الماضى ، فكل شىء قدر منذ الازل ، ولا مجال هنا لتجدد الزمن وتكرر الحدث .

وصور الشاعر غير مبتكرة أحيانا . فالمطر يمثل حلم العربى فهو يروى واقعة الظامىء ، وهو يروى له الزرع والضرع ، ولذلك من المألوف أن يشبه العربى الكريم بالغيث ، ولم يبتعد الشاعر عن هذا المألوف فقال :

كلتا يديـه غيـاث عم نفعهمـا ... تُستوكفـان ولا يعروهمـا عدم

والرائع فى هذا البيت قوله « تستوكفان » فيدا الممدوح محل الطلب من الناس وهما مثل سحابتين تمطران الرخاء كلما كانت الحاجة ملحة إلى ذلك ، ولا تنضبان من الخير الوفير .

وصيغة المبالغة فى قوله « حمال أثقال أقوام إذ افدحوا » تعبر عن الجهد الرهيب الذى يقوم به « على بن الحسين » إلى درجة أن كلمة « لا » لم يقلها الا فى التشهد ، فهو يستجيب دائما لرغبات الناس .

ويبالغ الشاعر فى ذلك مبالغة ذكية تعد من مبتكرات الشاعر ، حيث تعجب كل من يقع عليها برغم أنه يعلم استحالة تحققها ، ومن منا لا يعجب بهذا القول .

ما قال لا قط إلا فى تشهده .. لولا التشهد كانت لاؤه نعم ، ويمكن أن تستشف من تصوير الشاعر فلسفة الممدوح فى تعامله مع الناس أن لفظ « نعم » يكون فيما يرضى الله ، ويصلح الرعية ، وأن لفظ « لا » يكون فى الامور التى يراها بعيدة عن المنهج السوى ، وليست محققة للامل المطلوب .

وقد رمز لهذه الفلسفة بلب العقيدة وهو التشهد ، « لا إله إلا الله » وحين تستريح لهذا التفسير الفنى لن تشعر بالمبالغة فى هذا البيت بل الايحا: المركز ، والفلسفة الملتزمة بالمنهج ، ويحسب ذلك للشاعر وليس عليه .

★ ★ ★

وفى رسم الصورة الفنية « لعلى بن الحسين » أشرك الشاعر عناصر الطبيعة فى تجلية هذه الصورة ، وهذه العناصر مفتاح الخير فى الوجود ، فالغيث من عناصر الطبيعة الخَيِّرة يحيل الصحراء الى حدائق فينانه ، والممدوح يداه عم نفعهما ، فهما ترويان ظمأ الطالبين ، ولا تنقصان ، انهما تؤديان فى الناس وظيفة الغيث فى الطبيعة .

ولفظ « الغيث » يتفتح على آفاق من المعانى يقصر عنها لفظ « المطر » فالغيث نجاة ورحمة ، وإنقاذ من الهلاك ، والمطر قد يكون خيرا وقد يكون سيلا يدمر كل شىء ولذلك قال الله سبحانه « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام » .

والأشجار من عناصر الطبيعة النباتية وهى ثمرة من ثمار الغيث ، وقد وظفها الشاعر هنا توظيفا شعريا حين قال .

مشتقـــة من رسول الله نبعتـــه   طابت مغارسه والخيم والشيـم

فالممدوح هنا ليس فرعا بلا جذور لكنه شجرة قوية فى دوحة عظيمة تستمد خصوبتها وبهجتها وروعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يفصح هذا الخيال الشعرى عن صفات كثيرة فى ريادتها صفة القوة لأن النبعة شجرة تصنع من أخشابها « القسى » وهى من أدوات القتال عند العرب .

وفى هذا التصور إنذار خفى إلى هشام بن عبد الملك حتى يعلم أن « على بن الحسين » يمتلك القوة الروحية والحسية ، وهذه القوة ممتزجة بتكوينه النفسى والحسى والوراثى .

والليل والنهار آيتان من آيات الله ، وظاهرتان من ظواهر الطبيعة الكونية ، والليل فى الوجدان العربى مرادف للظلام والكآبة والوحشة والنهار مرادف للانطلاق والبهجة والأمل والحياة . ولذلك نرى الشاعر يشبه « على بن الحسين » فى وضاءته وإشراقة محياه ، وانتشار هديه بين الناس بالشمس وهى تبدد جهامة الظلام ، وقد جسد الظلام حين قال « ثوب الدجى » فاعطى له وظيفة حسية مع وظيفته البصرية ، والفعل « ينشق » ساعد على تأكيد الصورة الشعرية ، والاتيان به فى صيغة المضارع يؤكد تجدد هذه الحدث ، فكما تتجدد الشمس كل يوم لتصرع الظلام . فضياء « على بن الحسين » يمزق الدجى كلما تكاثف وحجب الحقيقة عن الناس .

- ويمكن أن نستشف من هذا الخيال صورة الصراع السياسى الذى دار بين الأمويين والعلويين ، فكما يتصارع الليل والنهار يتصارع هذان الطرفان ، والانتصار فى النهاية لضياء الحقيقة .

هكذا تخيل الشاعر ، او هكذا وصل بنا خيالنا النقدى .

فالشاعر الجيد شأنه كما قال المتنبى :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخَلْق جرَّاها ويختصم

وألفاظ الشاعر تجسم هذا الصراع . حيث تتضاد الكلمات هنا فيتآزر الخيال الشعرى مع البناء اللفظى مع واقع الممدوح لتكون الحقيقة فى النهاية هى ثمرة هذا التآزر وهذا الصراع .

وقد ساعدت الطبيعة فى تجسيم هذا الصراع . فهى منبع إلهام الشاعر ووسيلته فى صنع أدواته الفنية .

وتأمل ما بين هذه الالفاظ من مقابلات
الدجى الشمس ، نور الظلم

والشاعر يفلسف هذا الصراع الدائر بين الأمويين والعلويين فلسفة لغوية فتراه حين يتحدث عن آل على بن الحسين وهم آل البيت يكثر من المقابلات اللغوية والمعنوية .

وتأمل المسافة الشاسعة بين الدين والكفر ، وافتح وجدانك لاستقبال خيال الشاعر حين يقابل بين الحب والبغض ، فحب آل البيت دين ، وبغضهم كفر .

ألا ترى أنه أصدر حكما قاسيا على خصوم آل البيت ، وعبر عن جوهر الصراع بهذه المقابلات اللفظية ، ولا يترك المتلقى فى حيرة بل يلقى له الضوء فى الطريق فيقول « وقربهم منجى ومعتصم » .

- وتأمل هذا التضاد بين قوله « مقدم » وبين « مختوم » وحاول أن تكشف عن حقيقة الصراع المنبثق من هذا الجدل اللغوى ، وستعرف أن الشاعر يفضل العلويين على الأمويين لأن ذكر العلويين يأتى بعد ذكر الله ويختم به الكلم ، فهم المبتدأ وهم المنتهى ، ومن هذه الحقيقة يلمح الشاعر إلى الحب المستقر فى نفوس الناس لآل البيت حيث تشغل منتدياتهم بالحديث عنهم وتبدأ وتنتهى بهم فى كل يوم .

وهذا الحب لآل البيت مصدر خير للمحبين برغم المعاناة والصراع وقد عبر الشاعر عن هذا المفهوم فى هذا البيت .

يَسْتدفَعُ الشر والبلوى بحبهم ويُسْتَرَبُ به الإحسان والنعم

والصراع هنا يبدو فى المقابلة بين يستدفع ويسترب .

وبين الشر والاحسان
وبين البلوى والنعم

فالشر والبلوى فى بعد عنهم ، والاحسان والنعم فى قرب منهم ، وفى تعبير الشاعر بالفعل يستدفع ، وبالفعل « يسترب » ما يؤكد حقيقة الصراع وان حب آل البيت لا يشترى بثمن بخس بل بالمجاهدة والمجالدة والمدافعة وفى مقابل هذا نرى الاحسان والنعم فى زيادة مستمرة .

وفى بناء الفعل للمجهول فى يستدفع ، ويسترب ما يوحى بمبدأ التقية الذى سار عليه الشيعة ، وكان فيهم الائمة المستوورون ومنهم محمد ، واسماعيل ، ومحمد ، واحمد ، وعبد الله ، واحمد ، وحسين ، ثم عبد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية وهؤلاء ينحدرون من جعفر الصادق وهو حفيد على زين العابدين بن الحسين .

ولا أعتقد أن الفرزدق أدرك منهج الشيعة حين أخذوا بمبدأ « التقية » ويمكن أن تكون فطرته الشعرية أوحت له بذلك استشفافا لواقع الصراع بين الحزب الحاكم وأبناء على ، وتعاطفا معهم ، وخوفا عليهم .

وتأمل التضاد بين مفردات اللغة التى يجمع الشاعر من مكوناتها أجزاء صورته التعبيرية عن جود آل البيت بعد أن قرر أنهم خير أهل الارض وأنه لا يستطيع جواد البذل بعد جودهم ، وفى ذلك انباء عن الصراع الخفى بينهم وبين الحزب الحاكم .

فالشاعر يأتى بالعسر والبسط والثراء والعدم فى صورة تجسد ذلك الصراع أيضا وذلك حين يسند النقصان الى العسر ، وكأن العسر لديه قدرة على الفعل .

ويختم الشاعر قصيدته ببيت جمع فيه كل الخصال المحمودة ، وصاغة صياغة فنية توحى بجو الصراع أيضا ، فكلمة « الذم » كلمة عامة يدخل فى إطارها كل ما هو معيب ، ولم يعرف هذا الوصف طريقا إلى ساحة آل البيت فقد أبت السجايا والأيدى الممطرة عليه ذلك .

وفى الفعل « يأبى » سمة التحدى والمغالبة ، وعزيمة الاستمرار فى ذلك الطريق ، والمعنويات كما قلت سابقا استحالت إلى كائنات محسوسة عاقلة تتصرف ، ويصدر عنها الحديث وتتجول فى زوايا الزمن ، وهى فى موقع الفاعل دائما .

وتأمل قوله « لا ينقص العسر بسطا من أكفهم » وتخيل الصورة التى أرادها الشاعر لصفة العسر من خلال موقع الكلمة الإعرابى فالعسر فاعل . فما فعل ؟ وكيف فعل ؟ وما دور ذلك فى إثراء التجربة واكتمال صورة الممدوح ؟

وتأمل قوله :

« يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم   خيم كريم وأيد بالندى ديم »

وابحث عن فاعل « يأبى » وفاعل « يحل » ، وفسر ثمرة إسناد الفاعلية إلى « الذم » ، وخيم كريم ، فالمعنويات فى مخيلة الشاعر أشخاص عاقلة تتحرك وتفكر وتتجول فى كل اتجاه ، وتعمل على إكساب الزمان طهارة المكان ، وإكساب المكان براءة الزمان ، وهذه السلوكيات لن تتحقق إلا فى ظل آل البيت الذين ازدهر فيهم « على زين العابدين بن الحسين » .

ثالثا : « المعجم الاسلامى وأثره فى تشكيل التجربة »

هذه التجربة سيطر عليها الانفعال ونطقت الابيات بهذا الوجه الفنى عند الفرزدق ، فالقصيدة تتوالى فى دفعات واثبة لا فواصل بينها ولا أدوات عطف ، ولم يأت حرف العطف إلا فى البيت الرابع .

وليس قولك من هذا بضائره .. العرب تعرف من أنكرت والعجم ، وهذه سمة الانفعال والحدة ، والانفعال دليل الصدق .

والصدق الفنى من أولى الأسس التى يقوم عليها منهج الفن فى الاسلام ، والقصيدة نموذج رائد للشعر العربى والاسلامى الذى يشارك فى إرساء القيم الجديدة للبيئة الجديدة .

والجاحظ يقول « إن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا » .

ويقول ابن طباطبا العلوى « وينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره ، وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه ، فيلائم بينها ، لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه ، فينسى السامع المعنى يسوق القول إليه » .

والشاعر فى هذه القصيدة يقدم نموذجا متآلفا مع اتجاه النقد العربى الاسلامى .

فالقصيدة فى موضوع واحد ، ولم تتعدد أغراضها ، وهذه موجة جديدة فى المد الشعرى فى ذلك الوقت . وهى لم تبدأ بداية تقليدية فنأت عن وصف الأطلال ، وعن الغزل ، وابتعدت عن كل البدايات المعهودة فى الشعر آنذاك ، وانما بدأت بلب التجربة ، وتعامل الشاعر مع الموقف تعاملا مباشرا ، وكان هذا سر نجاحه ، برغم أنه قد يكون سببا فى فشل التعبير عن التجربة عند آخرين !!!

واتسمت البيئة الإسلامية الجديدة بألفاظ جديدة وتعابير جديدة ، وقيم جديدة فالبيت الثانى والثالث لا يمكن أن يقولها شاعر فى غير البيئة الإسلامية التى عايش الفرزدق أحداثها .

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقىّ النقىّ الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

فهل تجد هذا المصطلح فى الشعر قبل مجىء الاسلام

« ابن خير عباد الله كلهم »

- وهذه الصفات الاربع أليست من معجم هذه البيئة ومن مقومات هذه الحياة الجديدة (التقى ، النقى ، الطاهر ، العلم) .

● وفاطمة ليست محبوبة امرىء القيس ، وليست محبوبة الفرزدق ، وليست فتاة يتغزل فيها ، ولكنها الزهراء زوج سيدنا على رضى الله عنه ، وبنت المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ولها مالها من دور فى تكوين الوجدان المسلم .

وتأمل قوله « بجده أنبياء الله قد ختموا »

إنها حقائق عصرية يلقيها الشاعر . فاذا ببريقها يفوق بريق كل خيال فالخيال أحيانا كما يقول أحد النقاد الاوروبيين « يشبه عكاز الأعمى » .

● و « الحياء » صفة من موحيات البيئة الجديدة ، وقد كان الحياء قبل مجيء الاسلام عيبا وبخاصة فى الرجال ، أما هذه البيئة الاسلامية فمنهجها يقول « الايمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الايمان » .

والبيت التالى له صلة بشعيرة من شعائر الاسلام . وهى الحج

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

والقصيدة تفيض بالألفاظ والمعانى الجديدة .

وحين نمضى فى قراءتها قراءة اسلامية سنرى مظاهر كثيرة تعد من أسس العقيدة الاسلامية .

فالايمان بوجود الله ، والاقرار بأنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن يشرق فى هذا البيت .

الله شرفه قدما وعظمه جرى بذاك له فى لوحه القلم

ومحبة الرسول وآل بيته هى الطريق الى محبة الله ـ حقيقة لاشك فيها .

ونعثر على ظلال هذا المفهوم الاسلامى فى قول الشاعر :

من يشكر الله يشكر أولية ذا فالدين من بيت هذا ناله الامم

والتسامح منهج اسلامى يمثل لب التعامل مع الآخرين ، وهو سر بقاء الجسور الاخوية ممتدة بين البشر ، وهذا المنهج يخالف السلوكيات القديمة فى العصر الجاهلى ، فلهم تقاليدهم التى قضى عليها الاسلام أين وصف الفرزدق لعلى بن الحسين من وصف عنترة لنفسه ، أو من وصف النابغة للنعمان بن المنذر ، أو من وصف عمرو بن كلثوم لقبيلته ؟ ، ان الشاعر يقول فى حب صادق .

سهل الخليقة لا تخشى بوادره يزينه اثنان : حسن الخلق والشيم

وارجع الى تحليل الشاعر لشخصية « على بن الحسين » ورؤيتنا النقدية لهذا التحليل .

وستجد أن مقومات الشخصية وأبعادها الحسية والروحية والاجتماعية تمثل الشخصية الإسلامية فى أرقى نموذج لها .

هذا النموذج الانسانى نبحث عنه فى عصرنا المشوه الملامح وحين نبحث عنه فاننا نبحث عن « هويتنا المفقودة » فهل نعثر عليها ؟

وهل تتحدد معالم الشخصية الإسلامية من جديد . بعد أن تاهت فى دروب التقليد والمحاكاة ؟

هل تستقل هذه الشخصية من جديد فتعود إليها عزتها وكرامتها ؟ وقتها يرى العالمُ المسلمين من منظور الاجلال والتقدير ، فهم

مقــدم بعــد ذكــر الله ذكرهــم   فى كل بدء ومختــوم به الكلــم

يستدفـع الشر والبلــوى بحبهــم   ويستــرب به الإحسان والنعــم

□ □ □

(البتــراء)

من خطبة زياد بن أبيه بالبصرة

مصــادر النـــص

ورد نص هذه الخطبة فى الطبرى ٦ / ١٢٤ ، والبيان والتبين ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ ، وعيون الأخبار ١ / ٢٤١ والعقد الفريد ٤ / ١١٠ ، وتختلف هذه الكتب فى رواية نص الخطبة حيث تختلف الالفاظ ، ولكن لا تختلف المعانى ، والنص هنا من رواية الطبرى .

وفى كتاب البيان والتبين يقول الجاحظ فى إسناد الخطبة . قال : أبو الحسن المدائنى : ذكر ذلك عن مسلمة بن محارب ، وعن أبى بكر الهذلى .

قالا : قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن أبى سفيان وضم إليه خراسان وسجستان والفسق بالبصرة كثير فاش ظاهر .

قالا : فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ، وقال غيرهما بل قال : الحمد لله على إفضاله واحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه واكرامه . اللهم كما زودتنا نعما فألهمنا شكرا . أما بعد .

النـــص

(أ)

أ ـ أما بعد فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجر الموقد لأهله النار الباقى عليهم سعيرها ، ما يأتى سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم[1] من الأمور العظماء ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير كأن لم تسمعوا بآى الله ، ولم تقرؤا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكبير لاهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمد[2] الذى لا يزول .

---

(١) حلماؤكم : عقلاؤكم .
(٢) السرمد : الدائم .

أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات واختارت الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم احدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا به من تركم هذه المواخير [٣] المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل .

ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن[٤] دلج الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغطون على المختلس ، كل امرىء منكم يذب[٥] عن سفيهه صنيع من لا يخاف عقابا ولا يرجو معادا ، ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب ، حرام على الطعم والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا .

(ب)

إنى رأيت هذا الامر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين فى غير ضعف وشدة فى غير جبرية وعنف ، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول :

« أنج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لى قناتكم .

إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم على بكذبه فقد حلت لكم معصيتى وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوما غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف يدى وأذاى ، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه .

وقد كانت بينى وبين أقوام احن ، فجلعت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته ، إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى لى صفحته فإذا فعل لم أناظره .

فاستأنفوا أموركم ، واعينوا على أنفسكم .

فرب مبتئس بقد ومناسيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

---

(١) المواخير جمع ماخور وهو بيت الريبة .
(٢) الدلج : السير فى الليل .
(٣) يذب ض يدفع .
(٤) مكانس الريب : مخابىء المعاصى .
(٥) الولى : السيد ، والمولى : العبد .
(٦) الظاعن : السائر والمرتحل .
(٧) مثل عربى .
(٨) القناة : المرح والمراد هنا الطاعة .
(٩) بلقاء : فيها خطوط سوداء وبيضاء والمراد متميزة واضحة
(١٠) احسن : مشاحنات وأحقاد وهى جمع والمفرد : احنه .
(١١) يبدى صفحته : يكاشف خصمه ويظهر الود والمصالحة .

(جـ)

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة[١] نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا[٢] ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا فستوجبوا واعد لنا وفيأنا[٣] بمناصحتكم لنا .

واعلموا أنى مهما قصرت عنه فإنى لا أقصر عن ثلاث :

لست محتجبا عن طالب حاجة . منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ، ولا مجمرا[٥] لكم بعثا .

فادعوا الله بالصلاح لائمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حرمانكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكان شرا لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل .

وأيم[٦] الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى .

* * *

« زياد بن أبيه » « حياته ومنهجه »

« حياتـه »

يكتنف الغموض نشأة « زياد بن أبيه » واسمه يشير إلى هذا فهو لا ينتسب لقبيلة معينة ولا إلى أب محدد . ولكن هو ابن أبيه . فمن أبوه ؟

تقول بعض الروايات إنه يسمى « زياد بن عبيد » لان أمه سمية كانت جارية فارسية للحارث بن كلدة الثقفى المشهور « بطبة » ، وقيل إنه زوج « سمية » ثقفيا يسمى « عبيدا » .

وتقول بعض الروايات إن عبيدا كان عبدا روميا ولم يكن ثقفيا ، وقيل ان معاوية بن أبى

---

(١) ذاده : مدافعون .
(٢) خولنا : عهد الينا بالحكم .
(٣) الفىء : المراد هنا العطاء والغنيمة .
(٤) ابانه : حينه .
(٥) ولا مجمرا لكم بعثا : ولست تاركا الجيش فى بلاد الاعداء .
(٦) أيم الله : أصلها : أيمن الله : اسم وضع للقسم .

سفيان بعد وفاة « على » نسبه إلى أبيه أبى سفيان بعد أن استدعاه إلى دمشق وهدده ثم استماله وأصبح زياد من أقرب المقربين إلى معاوية .

وقد ولد زياد فى العام الاول للهجرة وتوفى عام « ٥٣ هـ » (٦٧٣ م) وكان مسقط رأسه فى الطائف و « زياد بن أبيه » شخصية سياسية حرص على تأكيد ذاته فى كل عصر مهما كان لون ذلك العصر ، فهو فى عهد « عمر بن الخطاب » يخرج مع الجيوش الغازية فى الشرق ، ويقوم بتسجيل الغنائم وتقسيمها مما يدل على مقدرة عقلية ، وحنكة سياسية ، وخبرة بأمور الحياة .

وفى عهد عثمان يحرص على تأكيد ذاته ، وإبراز شخصيته ، ويتخذه والى البصرة « عبد الله بن عامر » كاتبا له .

وفى عهد « على بن أبى طالب » يتولى خراج البصرة ، وقد استطاع أن يقنع سيدنا عليا بشخصيته وذلك حين ظهرت مواهبه الفنية والبطولية فى إعادته تميم لصف الامام « على » وكانت من أكبر المناوئين له وولاه سيدنا على بن أبى طالب على فارس « فرم الفساد ، وأصلح الشعث ، ورأب الصدع » ، متوسلا إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، وقال أهل فارس « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة » .

وفى بداية الدولة الأموية حدث تحول جذرى فى فكر « زياد بن أبيه » وتغير مسار خطه السياسى ، وكان لمعاوية ، والمغيرة بن شعبة الثقفى أثر فى ذلك التحول ، وأصبح واليا على البصرة وخراسان وسجستان ، وتولى الولاية على الكوفة بعد وفاة المغيرة بن شعبة سنة ٦٧٠ م وتفرد بحكم النصف الشرقى من الدولة الاسلامية وتوفى بالطاعون (سنة ٥٣ هـ - ٦٧٣ مـ)[١] .

« منهجـه » :

كان زياد متفقا مع معاوية فى سياسة الإبقاء على الجسور مقامة بينه وبين مناوئيه ، فشأنه شأن معاوية الذى يقول محددا منهجه فى الحياة « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت إن شدوها أرخيتها ، وإن أرخوها شددتها وكان يخلط سياسته باللين ولا يلجأ إلى الشدة إلا حين تعوزه الحيلة ، وهو فى هذا الاتجاه السياسى يخالف الحجاج الذى تكلم سيفه قبل فمه فى أكثر المواقف ، ويتفق معه فى سياسة التهديد والتوعد كما حدث فى خطبته « البتراء » موضوع دراستنا » .

وقال أبو الحسن المدائنى « قال الحسن »

« أوعد عمر فعفا ، وأوعد زياد فابتلى »

---

(١) انظر ترجمة « زياد بن ابيه » فى « المنجد فى الاعلام واللغة ،- العصر الاسلامى د . شوقى ضيف ، طبقات بن سعد ،- أسد الغابة - المعارف لابن قتيبة .

قال : وقال الحسن

« تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك » الناس[١]

الخطبــة دراســة فنيــة

هذه الخطبة قالها زياد بن أبيه عندما قدم البصرة سنة ٤٥ هـ ، ورأى ما عليه أهلها من فسق وخلاف ، ومناوأة وتمرد وشغب فقابلهم بهذه الخطبة الثائرة وكأنها ضربات سيف يوجهها إليهم .

(أ)

والبناء الفنى للخطبة يقتضى أن تحتوى الخطبة على :

أ ـ مقدمة ب ـ موضوع جـ ـ خاتمة .

وهذه المكونات الثلاثة تتكون أى خطبة منها مهما تنوع موضوعها واختلف سواء كانت سياسية أو أدبية أو محفلية أو غيرها .

ولكن زياد خالف هذا النهج الفنى فى بناء خطبته ، فالمقدمة كانت تبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم و « زياد » لم يبدأ بمثل هذه البداية ، ولذلك سميت خطبته « البتراء » ولكن لماذا لم يحمد الله ، ولم يصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية هذه الخطبة ؟

اختلف المؤرخون والنقاد حول هذه البداية ، فقالوا : إنه الباعث على هذا التهديد والتوعد .

وقالوا : إنه لم يكن متدينا ، ولم تمتزج نفسه بالقرآن ، ولم يتشرب قلبه تعاليم الدين ، ولذلك لم يجد حرجا فى بدء الخطبة خالية من الحمد ومن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : ان هذا الافتتاح المفاجىء يوحى للسامعين بالصرامة والغلظة ، ويضاعف رهبتهم من حاكمهم الجديد الذى لا يتورع من التنكيل والتقتيل[١] .

ويمكن أن تكون هذه التحليلات لبدء الخطبة مفسرة للقصد ، معبرة عن وجهة نظر صاحبها ، ولكن حينما نتأمل نص الخطبة نرى أن جزءها الاول يبدأ بالهجوم الشديد على أهل البصرة ، ورميهم بالسفه ، والبعد عن آى الله ، وعدم قراءة كتابه ، وعدم مقاومة الفحشاء والمنكر .

ـيان والتبيين للجاحظ ص ٢٤٥ (١) انظر : أدب السياسة فى العصر الاموى ص ٢٨٤ د/ أحمد الحوفى .

وليس من المناسب أن يذكر الحمد والصلاة على الرسول فى مفتتح كلام فيه هجوم وتقريع ، ووصف لقوم ابتعدوا عن المنهج السليم ، فالجو مشحون بالغضب والتوتر ، يوحى بالصدام والصراع . وهو لا يريد أن يطمئن من أمامه ، بل يقصد إلى رهبتهم وزرع الخوف فى قلوبهم .

ولذلك نظير فى « القرآن الكريم » ولله المثل الاعلى فى سورة التوبة أو « براءة » إنها تتحدث عن وعد الله للمشركين . وغيرهم من المخالفين وتبدأ بقوله سبحانه « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » ولجو السورة المفعم بتهديد المشركين وتوعدهم لم تذكر البسملة فى اولها كما قال اغلب المفسرين .

ولها أسماء اخر توحى بهذا الجو الذى يتعارض مع « التسمية » منها سورة التوبة والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنفير عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم »(١)

وبعد ثلاثين سنة خطب الحجاج فى أهل الكوفة خطبة أعنف وأشد وقعا من هذه الخطبة ، ولم يبدأها كذلك بمقدمة تقليدية ، وانما أغرب فى موقفه فدخل المسجد معتما بعمامته . قد غطى بها أكثر وجهه ، وقد تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وصعد المنبر ، وصمت زمنا لا يتكلم ، فقال بعض الناس . قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق وقال أحدهم : ألا أحصبه لكم ؟ فقالوا : تمهل حتى تنظر .

فلما رأى الحجاج عيون الناس شاخصة إليه ، وأيقن أنه هاج فضولهم وأثار دهشتهم ، وبلغ منهم ما أراد ، حسر اللثام عن فمه ، ونهض فقال :

أنــا ابــن جلا وطــلاع الثنايــا　　متــى أضع العمامــة تعرفونــى

ثم قال : يا أهل الكوفة : إنى لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها وانى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى .

ألا يقترب هذا المطلع من مطلع زياد بن أبيه فى خطبته قربا فنيا ونفسيا وإن اختلفت التعبيرات والألفاظ ؟

يقول زياد : أما بعد فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء والفجر الموقد لاهله النار الباقى عليهم سعيرها . ما يأتى سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم . من الامور العظام . ينبت فيها الصغير . ولا يتحاشى عنها الكبير .

(١) راجع تفسير « أبى السعود » جـ٤ د ٣٩ ط مكتبة عبد الرحمن محمد

وجاءت الخاتمة اقسى من المقدمة . فقبل أن يترك « زياد » مكانه قال : « وايم الله ـ ان ى فيكم لصرعى كثيرة . فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى » .

(ب) وجاءت أفكاره صورة لمنهجه وسياسته فهو يشتد ويلين ، يقسو ويحنو ، يبين ماله ومالهم ، ما عليه وما عليهم ، ثم ينذر مرة اخرى .

(جـ) والخطبة تتسم ألفاظها بالسهولة مع نبرة التحدى . فالالفاظ الغريبة هنا قليلة ، ولا يعيب هذا أسلوب المتحدث ، ولكن يعد ميزة فنية له .

(د) والعبارة محكمة وخاطفة ، مناسبة لجو الخطبة الذى يعتمد على التأثير ، والنبرة الخطابية العالية .

(هـ) وقد لجأ « زياد » إلى ظواهر فنية كثيرة تساعد على قوة التأثير وشحن العواطف ومنها :

(١) السجع . ونلاحظ أنه غير مطرد فى الخطبة ولكن يأتى بصوره عفوية الامر الذى اكسب الاسلوب هنا الصدق الفنى .

وفى المفتتح يركز على السجع حتى يجذب الانتباه والرهبة والدهشة فبعد أن يصف السامعين بالجهل يتعجب ويقول :

كأن لم تسمعوا بآى الله
ولم تقرؤا كتاب الله
ولم تسمعوا ما أعد الله
من الثواب الكريم لاهل طاعته
والعذاب الأليم لاهل معصيته
فى الزمن السرمد الذى لا يزول

ويقول فى فقرة أخرى :

فادعوا الله بالصلاح لائمتكم
فإنهم ساستكم
المؤديون الكم
وكهفكم الذى اليه تأوون
ومتى تصلحوا يصلحو
ولا تشربوا قلوبكم بغضهم
فيشتد لذلك غيظكم
ويطول له حزنكم
ولا تدركوا حاجتكم

مع أنه لو استجيب لكم
كان شرا لكم .

ومثل هذا السجع ملائم لجو الخطب ، وبخاصة الخطب السياسية التى يسيطر عليها التهديد والوعيد . فالفقرات هنا قصيرة ، والسجع ليس مطردا ولا متعمدا حتى لا يتسرب الملل الى السامعين . فالموقف يعتمد على التلوين الصوتى ، والتنويع الاسلوبى .

(٢) وبدافع من شحن الموقف بالتلوين الصوتى والتنويع الاسلوبى نرى « زيادا » يكثر من الطباق بين الالفاظ والمعانى والمواقف ، والخطبة كلها تكاد تكون مطابقات بين الالفاظ والعبارات والمعانى والمواقف ، فهو يقول « ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير »
ويقول « الثواب الكريم لاهل طاعته »
ثم يرد فيها بعبارة مضادة « والعذاب الأليم لاهل معصيته » وتأمل بناء الجملة فى العبارتين السابقتين ، سنرى فيهما أكثر من ظاهرة فنية تشيع فى الخطبة كلها .

فالعبارتان مسجوعتان حيث تختمان بكلمتين متشابهتين هيكلا (طاعته ، معصيته) واللفظان نفسهما بينهما « طباق » فهما متضادان والطباق والسجع بين كلمتى « الكريم والأليم » .

والعبارتان تبدآن بالمصدر الموصوف « الثواب الكريم ، العذاب الاليم » ، وتنتهيان باسم مؤنث مضاف إلى ضمير الغائب « طاعته معصيته » .

وتأمل الطباق فى الفقرة التالية وانظر دوره فى ترسيخ الفكرة وجلاء المعنى ، وتعميم الحكم ، واشاعة الرهبة حتى يستقر الحكم وتهدأ الامور يقول « وانى اقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم » .

(٣) ومن الوسائل التعبيرية التى لجأ إليها « زياد » فى خطبته مراعاة النظير والقياس الفكرى والاسلوبى .
يقول « من غرق قوما غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه » .

ومراعاة النظير فى هذه الخطبة تفسر لنا فكر زياد المنطقى . فالعقوبة مجانسة للجريمة ، ومن يرتكب جرما فعليه إثمه . « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وفى ذلك زجر للعصاة ، واطمئنان لعامة الشعب .

(٤) التأكيد . وهذه الظاهرة الاسلوبية شاعت فى الخطبة ولجأ « زياد » إلى ذلك حرصا على تثبيت موقفه ، والاخذ بزمام الامور ، والقضاء على الفساد ، والتأكيد هنا يأتى فى بداية الفقرات . حيث تتكرر ان مقترنه بياء المتكلم « انى » أو « بنا » اسم ان الدالة على الجمع وهو فى هذا خبير بأسلوبه . ويتكلم بصيغة الجمع فى

المبادىء العامة ، وتأتى خالية من ياء المتكلم ومن (نا) ألمتكلمين فى تأكيد المعانى المطلقة ، ولو تتبعنا الخطبة لرأينا الامثلة تؤيد هذا .

ففى الفقرة الاولى يقول :

« فان الجهالة الجهلاء . والضلالة العمياء » وانّ وردت مجردة لأنه يصف واقعهم .

وفى بداية الفقرة الثانية يقول « انى رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به اوله » ويقول متابعاً التأكيد بان والقسم ولام القسم ونون التوكيد « وانى اقسم بالله لآخذنّ الولى بالمولى » .

وهذه المؤكدات وردت فى مقام إقرار ما يشبه الدستور الآن ، ودستوره متشدد بعيد عن المألوف ، ولذلك شعر أن المعارضة ربما تكون قوية فقطع عليهم الطريق بهذا الاسلوب القوى المحصن بالمؤكدات .

وقد اعترض على منطقه وأسلوبه « أبو بلال مرداس بن أدية » فقام وهو يهمس ويقول أنبأنا الله بغير ما قلت : قال

وابراهيم الذى وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى

وان ليس للانسان الا ما سعى

وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر ، فسمعها زياد فقال : انا لا نبلغ ما نريد فيك وفى صحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضا .

وقالوا « تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس » . وتابع زياد النبرة نفسها ، وبدأ الفقرة التالية بان أيضا فقال :

« إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة »

وفى بيان تغاضية عن النوازع الفردية ، وأنه لا يهتم بالعداوة الشخصية يأتى « بإن » أيضا مؤكدا ذلك فيقول :

« إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا »

وحين يتحدث باسم الأسرة الحاكمة يقول :

« إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذاده »

وحين يوضح حق الناس عليه يقول مؤكدا :

« واعلموا أنى مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث »

ويختم الخطبة بالتأكيد بالقسم وبان قائلا فى تحد ونبرة قاسية
وأيمَ الله - إن لى فيكم لصرعى كثيرة »

(٥) الاستفهام :

وحين نتأمل النص نرى أن الاستفهام لم يأت إلا فى الموقف الذى يعنف فيه أهل البصرة ويصدمهم بحقائق الواقع الآثم الذى يعيشونه . يقول موبخا أهل البصرة ، منكرا عليهم تصرفاتهم .

أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ؟

ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟

(٦) أسلوب الشرط والجواب :

وقد اكثر « زياد » من الجمل الشرطية ، ولذلك المنحى الأسلوبى صلة بجو الخطبة وما يجرى قبلها وبعدها ، ولها صلة بما يهتم به هذا الحاكم الجديد ، وهو يحاول أن يرسى مبدأ الثواب والعقاب ، ولكل من الثواب والعقاب مبرراته ، وجاء أسلوب الشرط والجواب تجسيداً فنياً لدستور الحكم الجديد فلا ثواب إلا بإحسان ولا عقاب الا باساءة ، وقد أكثر « زياد » من أسلوب الشرط فى القسم الثانى والثالث من الخطبة لانهما يحددان منهج الحاكم الجديد » وأسلوب الشرط هو انسب صيغة للتحدث فى مثل هذه المواقف .

وجمل الشرط تحدد مبادىء « زياد » التى ألزم بها نفسه تجاه أهل البصرة يقول :

« فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف يدى وأذاى »

« فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا »

« ومن كان مسيئا فلينزع عن اساءته » .

(٧) الخيـال :

وهو إحدى الادوات الفنية التى استخدمها « زياد » فى قوة التأثير وجذب السامعين ، وتهديدهم .

فقد شخص المعنويات وأعطاها صفة المحسوسات كما فى وصفه للضلالة بأنها « عمياء » تعبيرا عن الضياع الذى يقع فريسته من تغوية الضلالة ، ووصفه « للفجر » بأنه

الموقد لاهله النار . وهو شيء معنوى ولكن جسم « زياد » ثمرته ، وأعطاه صفة القادر على الحدث عن طريقة « الاستعارة المكنية » ، ومن الصور الرائعة قوله « من الامور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير » فكلمة « ينبت » تعطى للعبارة جوا أسلوبيا أدبيا راقيا ، وتفتح للفكرة دوربا جديدة .

فأهل البصرة فطروا على الأحداث «محدثه» ، صغارهم وكبارهم فالصغار مثل البذور التى نبتت على هذه الشيم ، وهذه الأعمال حقل متسع ينبت فيه الأطفال ولا يتركه الرجال .

والتعبير بقوله « مكانس الريب » يصف حال السفهاء الذين غرروا بالناس واختبأوا فى مخابيء الإثم والريب ، فالخطيب أعطى للريب صفة المحسوسات وجعلها أشبه بكهف يتوارى فيه السفهاء ، وفى ذلك تفسير لخبث طويتهم وتبيتهم المؤامرات والدسائس فى الخفاء ، ولذلك نقرأ بعد هذا التعبير الجمالى قوله وهو يتحدى وينذر ويتوعد .

« حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدما واحراقا والعبارات التالية تنطوى على احساس بقيمة اللفظ والحرص على تجميل العبارة وربطها بالموقف :

« أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات »

« إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة »

« إنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى اليه تأوون »

« ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيتشد ذلك غيظكم »

والخطبة مفعمة بالأسرار البلاغية والقيم الجمالية والتعبيرية وتدل على مقدرة فائقة لدى زيادة بن أبيه ، فقد جمع بين السهولة والفخامة وبين الرقة والجزالة وقادته فطرته الى التراكيب النحوية الناطقة بالبلاغة الدالة التى تنأى عن التكلف والاقتسار ، والتى تقترب من وجدان السامع والقارىء .

وليس يخاف على كل ذى لب ما فى هذه الخطبة من مباديء الحكم واصلاح الرعية فى ظل منهج إسلامى يقر المساواة وينشد العدالة ، ويندد بالفسوق ، ويطارد العصاة ، ويبتر المفسدين ، ويحاسب الراعى قبل الرعية .

وفى الخطبة بعض المبالغات التى ظن بعض النقاد والمؤرخون أنها بعدت بصاحبها عن منهج الاسلام السوى فى الحكم ، وكذلك تأثر زياد بمبدأ التفويض الالهى كما عند الفرس حيث يقدس الحاكم ولا يعصى .

والمبالغات فى الخطبة تشبه طلقات التهديد التى تخيف ولا تصيب ، ترعب ولا تؤذى .

وماذا يقول مثله لأقوام ضاع الحق بينهم ، وفشت الرذيلة فيهم ، وقد حضر اليهم والفسق كثير فاش ظاهر فيهم ؟

وماذا يقول حتى يهددهم ويردعهم عما هم فيه من غى وضلال .

اننا لو تأملنا النص سنجد أن العبارات التى يحمل نفسه فيها الأمانة الصادقة ، وينوء بعبء المسئولية الكاملة تحتل قدرا كبيرا من الخطبة يكاد يستغرقها كلها ، وبخاصة الفقرة الثانية والثالثة .

إن مبادئه تتمثل فى القوانين الآتية :

- لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير جبرية وعنف
- الصدق والبعد عن مواقف الكذب .
- العقوبة الصارمة والضرب على أيدى العصاه
- عدم الخروج على الجماعة .
- كف الأيدى واللسان عن إيذاء الحاكم
- الحرص على المصلحة الجماعية والبعد عن النوازع الفردية
- السمع والطاعة من الرعية وعدالة الحاكم .
- متاصحة الرعية للحكام .
- عدم الاحتجاب عن الطالبين فى أى وقت .
- عدم إهمال الجانب العسكرى .
- صلاح الرعية مقياس صلاحية الراعى .

فهل تبتعد المبادىء السابقة عن جوهر الحكم فى الإسلام ؟

هل نعثر على هذا النموذج فى عصرنا الحاضر . حاكمين ومحكومين ؟

إن الخطبة من أروع ما خلفه العصر الأموى من خطب على كثرتها وتنوعها وغزارتها .

«ملامـــح العاطفـــة الاســـلامية»

«الحـــب والمـــوت»

لجرير يرثى زوجة «خالده»

(أ)

لولا الحيــاء لعادنـــى استعبــارُ	ولـزرت قبـــرك والحبـــيبُ يزارُ
ولقـد نظــرت وماتمتـــع نظـــرة	فى اللحد حيث تمكن المحفـــارّ
فجـزاك ربك فـى عشيـرك نظـرة	وسقـــى صداك مجلـــجل مدرار
ولـهت قلبـــى إذ علتنــــى كبــرة	وذوو التمائـم من بنـيك صغـــار
أرعى النجوم وقد مضت غوريـة	عصب النجـــوم كأنهـــن صوار

(ب)

نعـم القريـن وكنت علـق مضنَّـة	وارى بنعــف بليـــة الاحجـــار

---

(١) يروى هذا البيت برواية اخرى - لهاج لى استعبار « ويروى أيضا لها جنى ، لعادنى استعبار : لزارنى حزن ظاهر بليسه الكثيرون .

(٢) اللحد : إلقبر ، المحفار : الخفار : من يحفر الارض وغلب على من يحفر القبور والمحفار : الة الحفر أو اسم يطلق على من يحفر القبور .

(٣) العشير : الزوج ، الصدى جثمان الميت المجلجل : السحاب الراعد المطبق بالمطر ، مدرار : غزير المطر .

(٤) ولهت قلبى : أحزنت قلبى حتى كاد يذهب عقلى ، علتنى كبرة : أى كبرت سنى فالكبرة هى الكبر فى السن يقال علاه الكبر أو علته كبرة اذا أسن ، التمائم : جمع تميمة وهى محرزة كان العرب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفع الارواح .

(٥) غورية : أى أخذت نحو الغور للغروب والسقوط وعصب النجوم فوقها والصوار : القطيع من بقر الوحش .

(٦) العلق : المال الكريم والنفيس من كل شيء ومضننة أى يضمن به لنفاسته ، ورارها : سترها والنعف أسفل الجبل وأعلى الوادى وبلية اسم بلد .

عمرت مكرمة المساك وفارقت　　　مامسها صلف ولاافتار

فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك　　　هزم أجش وديمة مدرار

هزم أجش اذا استحار ببلدة　　　فكأنما بجوائها الأنهار

متراكب زجل يضيء وميضة　　　كالبلق تحت بطونها الأمهار

كانت مكرمة العشير ولم يكن　　　يخشى غوائلَ أم حزرة جارُ

(جـ)

ولقد أراك كسيت أجمل منظر　　　ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

---

(١) المساك : اسم الامساك . وهو فى أصله : الموضع يمسك الماء . ويطلق على البخل والامساك هنا ممنـ ـ ، الصلف : بغض من الزوج وذلك لقلة خيره والزهد فيه ، الاقتار : البخل والتضييق فى النفقة .

(٢) الصدى : جثمان الميت وعظامه ، والجدث القبر ، برقة : ضاحك : اسم موضع ، هزم : أى سحاب هزم أى متشقق بالرعد أو شديد صوت الرعد ، أجش : فى صوته جشة أى بُحَّة ، والديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق .

(٣) استحار : تردد وكثر ، الجواء : جمع جو وهو ما انخفض من الارض .

(٤) زجل : يريد صوت الرعد ، كالبلق ، يريد كالخيل البلق وهى ذات سواد وبياض ، الامهار : جمع مهر وهى صغار الخيل ، وقيل سميت بذلك لانتسابها الى مهرة بن حيدان من عرب اليمن . وقالوا إنها كانت لا يعدل بها شىء فى سرعة جريانها ، ويقال : الابل المهرية .

(٥) العشير : الزوج ، الغوائل : الدواهن ، أم حزرة : زوجة جرير وأم ابنه حزرة .

(٦) السكينة : الطمأنينة والمهابة ، الوقار : الرزانة .

والريـــح طيبـــة إذا استقبلتهـــا ... والعـــــــرض لادنس ولاخوار
وإذا سريت رأيت نارك نورت ... وجهـــاً أغـــر يزينـــة الاسفـــار
صلـى الملائكة الذيـــن تخيـــروا ... والصالحـــون علـــيك والأبرار
وعلـيك من صلـوات ربك كلمـــا ... نصب الحجيـج ملبديـن وغـــاروا

(د)

يانظـــرة لك يوم هاجت عبـــرة ... من أم حزرہ .. بالنميـــــرة دار
تحيى الـروامس ربعهـا فتجـــده ... بعـــد البلـــى وتميثـــه الأمطـــار

---

(١) العرض : هو النفس أو ما يفتخر به الانسان من حب أو شرف أو ما يصونه الانسان أو سلفه ، الدنس ، الوسخ والمراد أن عرضها لم يتلطخ بمكروه ، ولا خوار أى ليس عرضها ضعيفا ولا تمهلا بل هو مصون محفوظ .

(٢) سريت : سرت ليلا ، الاسفار المراد كشف الوجه .

(٣) دعاء لها بالرحمة .

(٤) نصب : قصد أو نصب بمعنى أعيا وتعب – ملبدين : من التلبيد اذا كان أحدهم اذا أراد الاحرام يصمغ شعره لئلا يقمل وغاروا : هبطوا غور تهامة .

(٥) الروامس : الرياح : ويقال لها : الرامسات ، والرمى القبر مستويا لا يعلو عن وجه الارض .
الربيع : الدار ، فتجده : تصيره جديدا .
البلى : القدم .

(٦) منزلة : مكانها جلاجل : اسم موضع والوحى : الكتاب ، الاحبار : جمع حبر وهو عالم الدين .

وكـــان منزلـــة لهـــا بجـــلاجل وحـى الزبـــور تجـده الأحبـــار
لاتكثـــرن اذا جعلت تلومنـــــي لايذهبـــن بحلـــمك الإكثـــار
كان الخليط هم الخليط فأصبحوا متبدليـــن وبالديـــار ديـــار
لايلـــبث القرنـــاء أن يتفرقـــوا ليل يكـــر عليهـــم ونهـــار

(هـ)

افـــأم حزرة يافـــرزدق عبتـــم غضب المليـــك عليكـــم القهّـــارُ
كانت إذا هجر الحليل فراشهـــا خزن الحـــديث وعـــفت الأسرار

الشاعر : حياة وفنا :

جرير : من أشهر الشعراء فى العصر الأمويين ويعد شاعر الأموين لأنه لم يتعاطف مع المذاهب السياسية الأخرى .. فلم يمل إلى الشيعة ولا إلى الخوارج ، وتكوين جرير النفسى دفعه إلى ذلك دفعا فلم تكن لديه القدرة على التصدى والمجالدة للحزب الحاكم ، وكان يشعر دائما بالحاجة إلى سند قوى يتكىء عليه ويمكن ان يعد شاعرا ذاتيا يتفوق فى الغزل . والرثاء والهجاء والمديح . انطلاقا من مشاعره الخاصة وانعكاسا لنفسيته البسيطة . التى تحكمها دوائر التعصب ولاتدفع بها العراقة القبلية الى حمأة الغرور والتردى فى مهاوى التسلط والمباهاة .

....

---

(١) الحلم : العقل .
(٢) الخليط : هم القوم المختلطون بالمجاورة .
(٣) القرناء : الاصحاب والاحباب .
(٤) أم حزرة : زوجة جرير وابنها يسمى حرزة .
(٥) الحليل : زوج المرأة ، خزن الحديث : كتم الحديث .

وهو جرير بن عطية بن حذيفة ولقب حذيفة الخطفى لقوله : وعنقا باقى البرسم خيطفا .. وهو من بنى كلب بن بربوع .. وأبوه عطية كان مضعوفا أى به ضعفة وهو ضعف الفؤاد وقلة الفطنة وأمه . أم قيس بنت معبد من بنى كليب ابن يربوع .

* وقد ولدت جريرا لسبعة أشهر سنة ٣٠ هـ وعمر نيفا وثمانية ومات باليمامه سنة ١١٤ هـ .

* ووله أخوان عمرو بن عطية ، وأبو الورد بن عطية .

* وكان له عشرة أبناء فيهم ثمانية ذكور .(١)

* وجرير بعد ابن عم الفرزدق فالفرزدق من مجاشع وجرير من كليب وهما ينتسبان الى تميم . ومجاشع كانت تتمتع بالسيادة والشرف بينما كليب كانت فى السفح والطبقة الدنيا ، وقوم جرير كانوا يرعون الغنم والحمير ، فهو ليسوا أهل إبل وخيل . ولم يشعر جرير بالضعة تجاه هذه النشأة بل كان بعد ذلك مفخرة له فقد كان يرى نفسه زهرة جميلة نبتت فى تربة ليس من شأنها أن تنبت الزهر(٢)

* وايمان جرير بمنهج الإسلام في المساواة بين الناس . وبأنه لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وبأنه اكرم الناس عند الله اتقاهم . جعله لايشعر بالهوان : فنفسه لم تكن فيها إستكانة ولاذلة كما يقول/د . شوقى ضيف . وانما هى نفس مسلمة ترفض العصبية ، وتؤمن بأن عمل الانسان هو ميراثه فى الحياة ومناط فخاره .

* وأسرة جرير : غلب عليها الشعر . فقد كان أخواه عمرو وأبو الورد ينظمان الشعر .

* وكان جده «الخطفى» خير من يلقنه الشعر وظل الشعر يتوارث فى أبنائه ومنهم بلال بن جرير وكان أفضلهم وأشعرهم ، ويكنى أبا زافر . ومنهم عكرمة بن جرير وعمارة بن عقيل بن بلال .

* وهذه الظاهرة الشعرية فى أصول وأحفاد جرير تعطينا تفسيرا لقوة شاعرية جرير فهو شاعر بالفطرة بعيد عن التكلف .

* وقد استطاع أن يصرع كل منافسيه من الشعراء ماعدا الفرزدق والأخطل فالمبارزة بينهم استمرت الى آخر رمق فى الحياة .

وقيل إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرا ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحدا واحدا ، و كان يهاجيه ثمانون شاعرا غلبهم جميعا وكان يقول : انهم يبدءوننى ثم لاأعفو(٣)

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة صـ٤٦٤ .
(٢) انظر التطور والتجديد فى الشعر الاموى د/ شوقى ضيف صـ١٥٢ .
(٣) انظر الاغانى والعصر الاسلامى د/ شوقى ضيف ص ٢٧٨ .

• وتنقل جرير بين حواضر الخلافة الأموية فوفد على يزيد بن معاوية وهو خليفة واقام بالمروت من بادية اليمامة ثم رحل إلى البصرة لينازل الفرزدق ويهاجيه ويناقضه ، ومدح الحكم بن أيوب الثقفى ثم مدح الحجاج بن يوسف الثقفى ، ومد الخليفة عبد الملك بن مروان ثم مدح الوليد بن عبد الملك ، واستطاع أن ينجو من لعنة الحجاج ولايتعرض لنقمة سليمان بن عبد الملك إذ انتقم من كل من له صلة بالحجاج . وبرغم ذلك فقد نجا جرير ، واتصل بسليمان بن عبد الملك ثم استطاع ايضا ان يفتح باب عمر بن عبد العزيز ويمدحه ثم يرثيه برغم أن عمر بن عبد العزيز قد أغلق بابه فى وجه الشعراء . وكان صادقا فى مديح عمره .

وقد قال فى رثائه :

تنعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... ياخير من حج بيت الله واعتمر
حملت أمرا عظيما فأصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله ياعمرا
فالشمس كاسفة ليست بطالعة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

ومدح يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك . ومدح كثيرا من أبناء الخلفاء وأشراف الأمة . وهكذا كانت حياته الفنية دفاعا عن صورة الحكم الأموى ، وتثبيتا للحكام الأمويين .

• وأما عن فنه : فهو شاعر متشبع بمبادىء الاسلام . ينطوى على طبيعة مسلمة توشى المشاعر بقيم إسلامية معنوية وجمالية .. فهو إذا مدح رأيناه يجعل الصفات المسلمة فى ذروة صفات الممدوح .

فهو يقول فى عبد الملك :

أنت المبارك يهدى الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل أمر على يمن أمرت به ... فينا مطاع و مهما قلت يستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم ... فضلا عظيما على من دينه البدع

• وفى هجائه نراه يستمد معانيه وخياله وألفاظه من الجو الاسلامى .

• فحين يهجو الأخطل يقول مفاخرا بنفسه وبقومه :

ألم ترأن عز بنى تميم ... بناه الله يوم بنى الجبالا
بنى لهم رواسى شامخات ... وعالى الله ذورته غطالا

• وفى رثائه يسيطر عليه الجو الاسلامى لفظا ومعنى وخيالا ، ومن ذلك قوله فى رثاء زوجته :

صلى الملائكة الذين تخيروا ... والصالحون عليك والابوار
وعليك من صلوات ربك كلما ... نصب الحجيج ملبدين وغاروا

* وقد أكسبه هذا الشعور الاسلامى رقة عاطفية . ظهرت هذه الرقة فى غزله الذى كان يفتتح به قصائده . وكان هذا الغزل من وحى زوجاته الثلاث أم حزرة وأمامه ، وأم حكيم الديلمية .

ومن صور هذه الرقة العاطفية قوله :

لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى — لاأستطيع لهذا الحب كتمانا
إن العيون التى فى طرفها مرض — قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به — وهن أضعف خلق الله أركانا
أتبعتهم مقلة إنسانها غرق — هل ماترى تارك للعين إنسانا

* وبرغم هذا الشعور الاسلامى وهذه الرقة العاطفية فى الرثاء والغزل نجده ، فى الهجاء عنيفا وحادا ، ويمكن أن نفسر هذا بأنه إجادة الدفاع عن النفس فهو كالفارس الماهر الذى لايعتدى ولكن يعرف كيف ينتقم لنفسه ، وهو من هذه الزاوية متفق مع الخط الاسلامى الذى يؤمن بهذا المبدأ .

«فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»

ووصف جرير نفسه بأنه مدينة الشعر . وهو يوازن بين شعره وبين شعر الأخطل فقال : «النصرانى أنعتنا للخمر والحمر ، وأمدحنا للملوك وأنا مدينة الشعر» .

* والأخطل يذكر رأيه فى جرير . حين يجيب على من سأله عن أى الثلاثة أشعر جرير ، أم الفرزدق ، أم الأخطل . قائلا .

أنا امدحهم للملوك ، وأنعتهم للخمر والحمر ، يعنى النساء ، وأما جرير فأنسبنا وأشبهنا ، وأما الفرزدق فأفخرنا .

* وهو فى رأى «أبى عمرو بن العلاء» يشبه من شعراء الجاهلية بالأعشى «وقال هدا بازيان يصيدان مابين العندليب إلى الكركى» .

* وكان من أحسن الناس تشبيها وقد قال «لولا ماشغلنى من هذه الكلاب لشبيت تشبيبا تحن منه العجوز الى شبابها كما تحن الناب إلى سقبها[1]»

* وموسيقا جرير جديدة بحكم اندماجه فى الاسلام وحفظه للقرآن الكريم وتجاوبه مع عصره من جميع النواحى ، وهو فى هذا المنحنى يتقدم الفرزدق كما يتقدم الأخطل ، فقد كان أكثر من الفرزدق استجابة للإسلام وطواعية له وانقيادا وكان كذلك اكثر منه قربا الى الحياة الحديثة ، لذلك كانت موسيقاه أقرب الى معاصريه منه لما امتازت به من لين وصفاء ومرونة ، وكان الفرزدق يشعر بذلك فيقول : ما أشرد قافيته .

(١) انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ط صـ (٤٦٤ - ٤٧٠) .

* وكان جرير فى موسيقاه نبعا يتدفق ، وقد وصفه الفرزدق وصفا دقيقا فقال «وانى واياه لنغترف من بحر واحد ، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر ، فهو يعترف بأن جريرا أقدر منه على الاستمداد من نهر الشعر» .

ويقول الأخطل موازنا بين جرير والفرزدق «جرير يغرف من بحر والفرزدق[1] ينحت من صخر» .

القراءة النقدية للنص :

أبعاد التجربة

* كل تجربة شعرية لها ابعادها التى تشكل ملامحها الفكرية والشعورية والجمالية ، وأبعاد هذه التجربة تتفرع الى ثلاثة أبعاد :

أ - البعد الفكرى .

ب - البعد الجمالى .

جـ - البعد الاسلامى «الرؤية الاسلامية وأثرها فى تشكيل التجربة» .

(أ) البعد الفكرى :

فكرة الرثاء هى لب التجربة هنا ،والرثاء هنا .. يدفع إليه الحب الممتزج بالنفس امتزاجا كليا ، وهذا الامتزاج الكلى يحول الفكرة الى عاطفة جياشة ، صادقة عاطفة مصخنة بالجراح وإحساس بالفقد ، عاطفة إنسانية عميقة تجعل من الحزن مصهرا للنفوس وتنقية للأحاسيس .

* والرثاء غرض قديم صاحب الشعراء منذ نشأة الشعر ، ولكن فى ظلال الاسلام اختلفت صورة الرثاء عنه فى العصر الجاهلى وبخاصة رثاء الزوجات ، فموقف العربى من المرأة قديما حال بينه وبين هذا الوفاء للزوجة لأنه كان يضع المرأة فى مرآة الغزل الحسى انطلاقا من رؤيته لدور المرأة فى الحياة وهو المتعة وإشباع الرغبة فقط ، وان أحب زوجته فان تقاليد البيئة كانت تقف حائلا دون ذلك فالحرائر من النساء كن مصونات ولايجوز فى عرف القبيلة او المجتمع القبلى ان يشتهر موضوع ذلك الحب ، وحين يرثى جرير القبيلة هذا الرثاء الصادق فهو يرثى دعائم فنية جديدة ويؤصل ظاهرة شعورية وقيمة انسانية فى الذروة من الوفاء والحب والأمان .

* وهذا البعد الفكرى تشكله أربعة محاور هى :

---

(١) انظر « التطور والتجديد فى الشعر الاموى د/ شوقى ضيف صـ٢١٦ - ٢١٨ .

أولا : صدمة الحزن ومواساة الطبيعة .

ثانيا : رؤية الشاعر للعلاقة الزوجية واحساسه الكونى بها .

ثالثا : فلسفة الجمال فى الاسلام .

رابعا : من ثنائيه الحب والموت تشرق فلسفة الحياة .

صـدمة الحـزن ومواسـاة الطبيعـة :

إن الحزن المشتعل فى نفس الشاعر إثر فقده زوجته يعانى الشاعر من كتمانه فهو يتحرج من إظهاره حياء من تقاليد المجتمع ، والشاعر مازال بهذا السلوك أسير التقاليد العربية القديمة وان شئت فقل البدوية . فلماذا الحياء فى موقف الحزن ، ولماذا يتوارى الرجل ويخفى أحزانه فى مثل هذا الموقف ؟ ألم يذكر حقيقة إنسانية هامة حينما قال :

«والحبيب يـــزار»

إن زيارة القبر منهج إسلامى فلماذا الحياء ؟ وممن يكون الحياء ؟

* وصدمة الشاعر إزاء هذا الفقد تتجمع فى لحظة قاسية لحظة فاصلة بين عالمين مختلفين عالم الجسد ، وعالم الروح ، عالم الغيب وعالم الشهادة وماذا تجدى النظرات وقد تمكن المحفار من دفن ذلك النور الحبيب ، وغيبته فى الظلام الموحش .

* وقد عمق من صدمة الشاعر وزاده حزنا وانفعالا بالحدث ، كبر سنه واحتياجه الى زوجته فى هذه المرحلة من العمر ، وبخاصة أن اولاده مازالوا صغارا فى حاجة الى الحنان والرعاية ، وفى ذلك تنويه بدور الأم فى تنشئة اولادها تنشئة واعية كاملة .

* ووجد الشاعر منفذا لصدمة الحزن ، فهو لايملك إلا الدعاء لزوجته والدعاء هنا فيه مناجاة وفيه تضرع وفيه آثار البيئة البدوية حيث يشرك معه الطبيعة فى مواساته ، حين تفيض بالماء على قبرها فيندى كيانه فهو يقول :

فجزاك ربك فى عشيرك نظرة ... وسقى صداك مجلجل مدرار

* والطبيعة تواسيه حين يرى النجوم تغيب وكأنه يناجى نفسه ويأخذ من النجوم معادلا موضوعيا لزوجته الراحلة . فالنجوم الغائبة ستعود قريبا . كذلك زوجته فى حلمه الثائر على أحزانه عائدة اليه كالنجمة تعود إلى أفقها أكثر وضاءة وإشراقا .

ثانيا : رؤية الشاعر للعلاقات الزوجية واحساسه الكونى بها :

(الابيات من ١ : ١١)

وبعد أن يفيق الشاعر من صدمة الحزن وتهدأ انفعالاته ويرجع من ذاكرته ويثوب الى رشده يرسم صورة مشرقة لهذه الحبيبة صورة سلوكية ، توحى فى مجملها ، بإدراك الشاعر لقدسية العلاقة الزوجية وقيمة المرأة فى الاسلام ، فهى نعم القرين ، وهى مال نفيس وجوهر مكنون ، وما أقسى ان يدفن هذا اللؤلؤ الغالى تحت الأحجار ، وهذه الحبيبة - الزوجة - لم تكن مبذرة . وأنما كانت ممسكة ليس عن بخل ولكن عن وعى وتقدير للمواقف ، ولم تغضب الزوج بذلك . حيث لم ينفر منها ، ولم يضيق عليها لانها عاشت وفارقت وهى نموذج للمرأة المسلمة ، تكرم زوجها ويكرمها ، ويأمنها جيرانها ، وتألفهم ويألفونها .

* وهذه الرؤية الاجتماعية للعلاقة الزوجية يقرنها الشاعر بأحساس كونى تمتزج به الطبيعة ، وهذا السلوك الفنى منهج ا[illegible]ر فى رسم لوحاته ، والطبيعة هنا دعاء صاعد من واقع الشاعر الجريح الظامئ الأسير ، [illegible]تقد أن الماء يحيى كل شئ ، فيدعو أن يهطل المطر حتى تصبح الأرض أنهارا وتضئ ال[illegible]ن الرعد ، والبرق ويذكر صورة الخيل وهى يحتمى بها أبناؤها .

فى هذا المشهد الطبي[illegible]لذى تعانقت فيه الأمطار والأضواء والأصوات والألوان ، وكأنها صورة للحياة الزاخرة بألوان البهجة ، يحاول الشاعر أن يستعيد بها ذاكرته ، وعالمه الذى عاشه مع زوجته فى حياتها ، إعادة صياغة الماضى فى مرآة المستقبل .

ثالثا : فلسفة الجمال فى الاسلام (١٢ : ١٥)

والشاعر فى حالة حضور شعرى ، واستدعاء للذاكرة ، ومناجاة نفسية صادقة وإنه يستعيد صورة زوجته ويتمثلها امامه نموذجا للجمال الحسى والروحى ، وهو مفهوم الجمال فى الاسلام ، فهى قد لبست ثوبا من الجمال عبر عنه بأنه أجمل منظر ومع مافى كلمة «منظر» من سذاجة ، أو ألفة سوقية فهى تعبر عن مرادها ، والسكينة والوقار يوشيان ذلك الجمال بقيم روحية وإنسانية صافية ، وهذا الجمال انعكس على الطبيعة . فاذا بالريح تعبق بالعطور حين تستقبلها أم حزرة ، وهذه الرائحة ليست خارجية فقط ، وليست مثل خضراء الدمن وانما العرض طاهر نظيف ، وقوى فى مواجهة الخصوم فهو فى ثقة من نقائه وطهارته .

* وجمالها يضئ الليل .. ووجهها الأغر يتألق فى بشر وعفاف وينتشر ضياؤه فى كل الجهات .

* ويستقيظ الشاعر من غفوته ، ويثوب إلى رشده ، وتنتهى مناجاته الداخلية ويسلط شعاع حبه على حاضره ، ويستلهم قيم ذلك الحاضر الاسلامى فيدعو مرة اخرى بالرحمة لهذه الحبيبة

الراحلة .. فالكون كله يصلى عليها - الملائكة والصالحون الأبرار ، بل وخالق الكون ، ويبارك هذه الصلوات .. فى زمان التوجه إليه ومكان الحج إليه ..

صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا

رابعا : من ثنائية الحب والموت تشرق فلسفة الحياة بعد أن رسم الشاعر صورة لهذا الجمال ، وتمنى خلوده حين دعا بالصلاة عليه رجع إلى ديار حبيبته وشاهد تعاقب الزمن عليها ، وصراع الطبيعة عندها فالرياح تجعل الربع جديدا بما تحمل من بذور الخير ولقاح الأمان والامطار المنهمرة تكتسح هذه البذور تفسد ذلك اللقاح فتميت كل أمل وليد ، فمنزل الحبيبة أصبح أثرا بعد عين يمكن ان يخط كما تخط سطور الكتاب ، وفى هذا الجزء يلمح الشاعر الى أنه يحس بالبعد الزمنى أو ينقل أمامنا إحساسه فى المستقبل ويتخيل واقعه فيما يأتى من الزمان فهى صورة مستدعاة من الحدس والإحساس بالمستقبل .

* ومن هنا تنبع فلسفة الشاعر فالحب والموت ، والفرقة .. يمثلون جوهر فلسفة الحياة ، وينتهى بحكمة تجمع أطراف الحياة ، وتنطق بفلسفة الوجود والعدم فيقول وقد تشبعت نفسه باليقين .

لايلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

وينتقل الشاعر إلى غرض آخر فى القصيدة الى هجاء الفرزدق ولكنه هجاء دفع اليه الحب والموت ، فالفرزدق وقبيلته قد عابوا «أم حزرة» وقد أثر ذلك فى «جرير» ابلغ تأثير فاندفع من واقع حبه وصدمة موت زوجته ، وقسوة فراقها يهجو أم الفرزدق وأخته وقومه هجاء قاسيا عنيفا على أشد ماتكون القسوة ، وعلى أقسى مايكون العنف ، وقد دافع عن زوجته بدعائه على قوم الفرزدق أن يغضب عليهم الملك القهار ، فزوجته نموذج للمرأة المسلمة التى يغضب لإهانتها مليك الوجود وقهار الطاغين فقد كانت إذا هجر الحليل فراشها . حزن الحديث وعفت الأسرار .

(ب) البعد الجمالى وكشفه عن معالم التجربة :

إن القراءة الجمالية للنص تحاول أن تكشف أسرار التجربة بمحاولتها استنطاق الكلمات . ومابين الأصوات ومدلالوتها من ألفة وانسجام ، وتحاول ان تصل إلى الإشعاعات التى تنشأ عن مقدار ماتتحمله الكلمة من طاقة ايحائية وماتتفجر عنه العبارات وماتوحى به الصياغة من معان باطنية ممتدة وماتثمره العلاقات اللغوية والأساليب النحوية من أبعاد جمالية تكسب التجربة خصوبة وحيوية وعمقا وصدقا وانسجاما وتآلفا ، وموقف الشاعر من الزمن يحدد مسار تجربته ويفسح لها الآماد . أو يقطع عليها سبيل الامتداد فى الزمن ، واذا بها تنحسر . وتظل أسيرة مناسبتها وتذوى انا فانا حتى يأتى عليها حين من الدهر وهى ليست شيئا مذكورا .

* وجرير هنا يخوض تجربة يحاول الحب فيها أن ينتصر على الموت ..، وأولى دلائل هذا الانتصار أن الموت قد جعل الحب حقيقة لايشوبها الادعاء فالحب فى حضور المحبوب يمكن ان يشوبه النفاق أو أن تشوه وجهه المبالغة ، أما ان يبقى الحب فى حضور مشع فى غياب المحبوب ، فهذا هو الحب فى أصدق حالاته وهذا هو الوفاء فى أسمى صفاته .

* وفى وجود الحب يقوى الحزن ويشتد حزنه لرحيل المحبوب ، ويقع الشاعر فريسة الحزن والتناقص فيبدأ تجربته بهذا المزج الشعورى الذى يختلط فيه الحب بالحزن ، بالتناقص وينصهر فيه الممكن بالمستحيل والوجود بالعدم واداة الشرط «لولا» وشرطها وجوابها . تجسيد لغوى لهذا المزج الشعورى فالشاعر فى حاجة لمن يعوده فى مأساته وما اقسى الموقف حتي يتمنى الإنسان ان يعوده الدمع ، وكأن المستحيل – الدمع – فى مقابل الممكن – الحياء ولاشك ان ميراث الشاعر من تقاليد البيئة وعاداتها ضعف من مأساته

* وإلا فهل من المألوف ان يقف الحياء حائلا بين الشاعر وبين زيارة قبر زوجته وهو الذى صاغ حكمة انسانية فى كلمتين تفحصان عن الكثير من المعانى فى قوله «والحبيب يزار» .

وتأمل الموقع الاعرابى لهذه الحكمة . إنها فى موقع الحال . فهى حالة حاضرة فى كل زمان وفى كل مكان .

* وهل منع الحياء الشاعر حقا من إظهار مكنون مشاعره :

إن صياغة البيت فى أسلوب الشرط ، وأداة الشرط بمدلولها اللغوى . فهى اداة امتناع لوجود يؤكد ان الحياء لم يستطع اخفاء صوت الحزن الصاعد من قلب الشاعر .

* والايقاع والقافية يجعلان من الإحساس بالفقد ظاهرة صوتية ملموسة فصوت «السراء» صوت شاق وعسير ، وقد بنى الشاعر عليها قافيته فى القصيدة وحركة الضمة ثقيلة شديدة : فصوت الحرف مع صوت الحركة يشكلان فى نهاية كل بيت مدى المعاناة التى ينوء بها إحساس الشاعر .

* فالراء تمثل فلسفة صوتية للحزن . فهو يتضاعف .. وذلك أنها صوت مكرر لان التقاء طرف اللسان بحافة الحنك ممايلى الثنايا العليا يتكرر فى النطق بها كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقا لينا يسيرا مرتين أو ثلاثا .

* والراء كالكلام فى أنَّ كلًّا منهما من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، وأن كلا منهما مجهور ، فلتكون الراء يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل الى مخرجه وهو طرف اللسان ملتقيا بحافة الحنك الأعلى فيضيق هناك مجرى الهواء ، والصفة المميزة للراء هى تكرر طرف اللسان للحنك عند النطق بها .

فالروى فيه مشقة وعسر وحركته تزيد العسر ثقلا ، والردف وهو ماقبل الروى «ألف المد» يصور امتداد الحزن ، واتساع هوة الاسى والتصورات السابقة لحزن الشاعر نستطيع توقعها حين نتذكر أن الشعر العربى كان انشادا - أولا فخصائص الحروف ونوعية الحركات وتركيب الكلمات تدخل جميعها فى رصد التجربة من جميع نواحيها .

* واذا كنا استنطقنا الصياغة والايقاع والصوت اللغوى .. والدلالة الحركية للوقوف على حقيقة احساس الشاعر الذى حاول اخفاءه .. فإنه بعد ذلك كشف عن المستور وأعلن هذا الحزن وقدمه فى صور متعددة ، قدمه فى صورة الحسرة ، وفى صورة الدعاء ، وفى صورة الواقع الحزين ، وفى صورة الرمز الكونى ، فالحسرة التى تجسم اليأس من عودة محبوبته تغلف هذا البيت .

ولقد نظرت ومـاتمتـع نظــرة　　　فى اللحد حيث تمكن المحفـــار

هذا البيت يصور مشهد الحسرة والشاعر أمام القبر . ينظر . ولاجدوى برغم انه عبر بقوله و لقد نظرت وقد مقترنة باللام تزيد من تحقق النظر وحينما يعود النظر بلا ثمرة تكبر الحسرة ، وينمو اليأس كلما عاود النظر والاستفسار فى قوله وما تمتع نظرة فى اللحد يضيف إلى الحسرة بعدا آخر فهى واقع لامفر منه وهل بعد التعبير بـ (فى) تحسر وأسى وهل كان الاسى فى مثل هذا الحجم لو عبر باللام أو بإلىَ فقال إلى أو اللحد ؟ والمادة اللغوية فى «الفعل» تمكنَّ تقود إلى احساس الشاعر بالفقد ليس فقد المحبوبة فحسب ولكن فقد ملكية الأشياء جميعها ، و«المحفار» يومىء إلى شرعية هذا التمكن فالمبالغة هنا ليست ترفا لغويا وليست ضرورة شعرية ، وليست توسلا للقافية وانما هى واقع شعورى يعمق من الاحساس بفقدان الأشياء . ومن ثم تكون الحسرة ، ويكون اليأس من عودة الحبيب !!!!

* والدعاء : الذى ينبع من منظور إسلامى ومن إحساس الشاعر بمواساة الطبيعة ودور كائناتها فى تخفيف آلام الانسان ، وإحياء للنظرية القديمة التى تربط بين الظواهر الطبيعية ومايعترى الانسان من آلام نفسية . هذا الدعاء الذى يشرق بهذه السمات يمثله هذا البيت .

فجزاك ربك فى عشيرك نظرة   وسقـــى صداك مجلـــجل مدرار

والدعاء فى شطر البيت الأول يصور العلاقة بين الشاعر . وزوجته وربه انطلاقا من ايمانه بالعقيدة الاسلامية التى تحدد مسؤولية الرجل والمرأة فى البيت ولفظ «العشير» يشع بواقع الشاعر مع زوجته ويفصح عن العلاقة الحميمة التى كانت بينهما ولفظ (صدى) انتقال مفاجئ من الواقع الذى كان الى الواقع الكائن فقد كانت معه بكل كيانها والآن اصبحت صدى يحاول أن يتلمسه . ولكن هيهات وهنا تكبر صدمة الحزن ، وتعلو أسواره ، ولكن هل يستسلم الشاعر : وهل ينتصر الموت على الحب ، إن الصياغة الفنية تأبى ذلك ، وتقول غير هذا ، فكاف الخطاب فى البيت تكرر أربع مرات «فجزاكِ» ربكِ عشيركِ صداكِ ، فهى فى مخيلة الشاعر حاضرة ماثلة أمامه يخاطبها غير مقتنع بذهابها وبعدها عنه وفى ذلك انتصار للحب على الموت ، ويحاول الشاعر ان يعطى لهذا الحضور أبعاده التى تؤكد وجوده ، فيصور السحاب راعدا محدثا صوتا ينتبه له الجميع ، أعلانا عن ذلك الحدث ووصفه للسحاب بأنه مدرار صورة مستقبلية للنماء ففى وجدانه يكمن أمل بعيد .. بعيد هو ان تعود للحياة أو أن واقعه الثائر على الموت ، وحبه الذى يحاول الانتصار يتخيلها وقد أحياها الماء فمن الماء جعل الله كل شئ حى ، وحينئذ لايكون الجثمان صدى بل يصبح كما كان متفاعلا مع الحياة .. وصياغة البيت فى صورة الدعاء تؤكد ماذهبنا إليه فى تفسير البيت فالانسان لايدعو إلا اذا كان واقعه فى حاجة ملحة إلى اجابة الدعاء : هل استجيب للشاعر ؟ لننظر رؤيته لواقعه الحزين .

* الواقع الحزين يمثله هذا البيت :

ولـهت قلبـــى إذ علتنـــى كبـــرة   وذوو التمائم من بنـيك صغـــار

الشاعر هنا يستحضر صورة زوجته ويخاطبها وجها لوجه «ولهت» «بنيك» وهو فى استحضاره لهذه الرؤية يقترب من حافة الجنون ، حين يقول «ولهت قلبى» فالوله حزن يكاد يذهب بالعقل ، ان التفكير هنا يتلاشى والعاطفة فى مواجهة الحزن تحترق وتذوب وتصبح كائنا اثيريا يملأ الوجود كله ويمكن ان نطلق على إسناد الوله للقلب تراسل القوى النفسية بالانسان ، فالقلب يفكر والعقل يمور بالعاطفة قياسا على نظرية تراسل الحواس حين نقول : شربنا العبير وحسونا الضوء أو حين نقول «العين تسمع والأذن ترى» .

* وواقع الشاعر الذاتى يترجم ذلك الحزن لفراق زوجته فهو فى أمس الحاجة اليها لأن الكبر تمكن منه وما أرق ذلك التعبير : وما أدقه فى رصد واقع الشاعر «علتنى كبْرة إنه يئن تحت ركام السنين الهائل ، و لو كان الأمر يقف عند هذا الحد لهان الأمر ، لكن للواقع وجها اخر ، وجه المستقبل الشاحب الذى يقرأه فى عمر أولاده ، فهم مازالوا صغارا وهو طاعن فى السن ، لايؤمل أن يمتد به العمر حتى يشبوا عن الطوق وهو لايقدر على القيام تجاههم بواجب الحياة ، ومن هنا تكون مبررات الاقتراب من حافة الجنون ومن هنا نشعر بكبر حجم مسؤولية المرأة فى الاسلام فليس الحزن انفعالا عاطفيا رقيقا ولكن الحزن هنا انفعال مع واقع الحياة الذى يحرص الشاعر على تجميله واستمراره فى صورة الأطفال الذين يدخلون باب المستقبل بلا راع ، ونلمح أيضا إدراك الشاعر لدور الأمومة فى الاسلام إدراكا واعيا .

* والرمز الكونى الذى يكمل لوحة الحزن التى رسمها الشاعر ينطق به هذا البيت :

أرعى النجوم وقد مضت غورية عصب النجـوم كأنهـن صوار

والشاعر قد ملّ واقعه الأرضى وعذبه التفكير وأضنته العاطفة فاذا به يتخيل نفسه قائدا للنجوم .. ويربط بين واقع فقده لزوجته ، وبين تصويره لمأساته فزوجته اختطفها منه الموت ، والنجوم تهرب منه ، وتمضى للأغوار وفى التشبيه كأنهن صوار عدم انفصال عن الواقع وايماء الى أن الشاعر وان مل واقعه الأرضى فإنه لم يهرب هروبا كليا ولكن لم يزل فى أعماقه حنين إلى الحياة مرة أخرى ومعايشة هذه البيئة أو أن تشبيه النجوم ببقر الوحش يصور مدى فزع الشاعر ، ويرمز الى الخوف الذى دمر داخله .

* والتشبيه الذى يقرب الشاعر من واقعه يتأكد حينما ننتقل الى البيت التالى له والذى يبدأ منه فى رسم صورة اجتماعية لهذه الزوجة . ويصوغ هذه الصورة فى مشهدين : مشهد يرسمه الأسلوب ، ومشهد يربط فيه بين المقومات الأساسية فى الحياة وبين زوجته .

* فأسلوب المدح فى قوله : نعم القرين يؤكد ماكانت عليه هذه الزوجة من حسن معاشرة وطيب خلق ، ودوام و فاء ، ويشبها بالجوهر الكريم الذى يحفظه الانسان فى أعز مكان ضنا به وخوفاً عليه ثم يصدمنا كعادته فى ذكر الشئ بصورتيه المضيئة ثم المظلمة اعلانا عن الصراع الذى يمور بداخله ، والتناقض الذى يحطم كيانه ، فيقول إن هذا الجوهر المكنون قد أصبح تحت الأحجار وما أقسى هذا الواقع ووراء تشبيهه بالجوهر قيمة اجتماعية سلوكية تبدو فى سلوك زوجته ونفعها لزوجها وللناس .

* والشاعر فى حالة حضوره الشعرى واستحضاره لمواقع زوجته وتخيلها أمامه يناجى نفسه ويسرد مونولوجا داخليا فى نفسه كما يحدث فى تيار الوعى فى القصة القصيرة أو طريقه

«إلفلاش باك» فى السينما ، أو استدعاء الذاكرة فى القصيدة الحديثة ، ويعطينا صورة عن سلوكها فى بيتها فهى ليست مبذرة ويصف إمساكها بأنه إمساك كريم حتى ينفى صفة البخل عنها ، وفى قوله عمرت «إيحاء بأنها كانت تعمر ولاتخرب وفى ذلك إحساس حاد بالحزن فهو دائما بين نقيضين .

ويعود فى مناجاته الداخلية إلى الدعاء مرة ثانية وهو فى ذهرله . أن تسقى الأمطار قبر صاحبته وصورة المطر يعنى بها الشاعر أكثر من ذى قبل أملا منه فى عودة صاحبته الى الحياة فالرعد هنا الذى يصر الشاعر على ذكره قبل المطر يمثل صرخة الطبيعة وانفعالها ومشاركتها للشاكر مأساته ووصف الرعد بأنه «أجش» .

ايحاء بذلك الحزن الذى يجعل الصوت مخنوقاً ، وما السحاب والرعد ، إلا صورة لداخل الشاعر وأمنياته وواقعه فالطبيعة تتحول من مشاهد خارجية إلى مشاهد نفسية تشارك فى اكتمال لوحة الحزن ، والتشبيه فى قوله : فكأنما بجوانبها الأنهار يحمل رغبة الشاعر فى تجميل وجه الحياة وقد يكون هذا الحلم نشدانا لغد آمن يعرف فيه أبناؤه طريقهم فى غياب الأب والأم .

* وفى البيت العاشر يمضى فى وصف السحاب والرعد والنار والدخان والماء فيقول :

متــــراكب زجل يضىء ومـــيضة كالبلـق تحت بطونهـــا الأمهـــار

وهذه صورة من أروع صور الشاعر بل من أروع الصور الشعرية فى شعرنا القديم إنه يشبه ظواهر الطبيعة السماوية ، الرعد والبرق والضوء .. والصوت بالخيول البلق التى يختلط بياضها بسوادها وهى تضم إليها أمهارها الصغيرة .

* ان فلسفة الصورة الشعرية هنا تكمن فى حنين الشاعر إلى بيئته وإلى حنينه إلى الواقع الذى عاشه مع هذه البيئة بخيره وشره وسواده وبياضه ورعده وبرقه وأمومته وطفولته ، إن صورة الحياة بضجيجها واختلافاتها وصراعها تتمثل فى هذه الصورة الشعرية الرائعة .

* ورسم صورة الخيل تضم تحت بطونها الأمهار - رمز .. أو معادل فنى موضوعى لصورة الأمومة والطفولة ، ومن ثم صورة زوجته أم حزره واولادها وقد حرموا ذلك الحضن الدافىء وهم نهب عواصف الزمن وثورة الطبيعة .

* وبعد هذه الصورة الرمزية يعود الشاعر الى واقعه مع زوجته وهو لم يزل فى مناجاته واستدعاء ذاكرته فجيرانها فى أمن دائم معها وعشيرها فى سعادة وحنان والتعبير بالفعل كانت يفسر ما يعتمل فى نفس الشاعر من حسرة وأسى بالغين .. فزمن الفرحة قد مضى وانتهى .

* ويعود الينا الشاعر مرة أخرى ويستحضر صورة زوجته ويخاطبها ويستدعى الماضى ويجعله واقعا أمامه ويضع أمامنا نموذجا للمرأة المثال والواقع فى آن واحد .

فالجمال الحسى والمعنوى يتجسم فى قوله :

ولقد أراك كسيت أجمل منظـــر   ومـع الجمـــال سكينـــة ووقـــار

والجمال محقق مؤكد واللام وقد تدلان على ذلك وهو يكاد يقسم على ذلك ونشم رائحة القسم من « الواو » فى أول البيت .

□ □ □

وارانى غير متعاطف مع قوله «كسيت» لأن الكساء ثوب خارجى ، ويمكن أن يخلع فى أى وقت ولو استعمل فعلا غيره لكان أجدى واوفق فى التعبير ، وكلمة «منظر» لاتعمق الرؤية الجمالية للشاعر ، ولاتوحى بأبعاد جمال زوجته ، والشطر الثانى من البيت يرأب الصداع الذى هوى بالشطر الأول ، ويتعانق الجمال الروحى مع الجمال الحسى ، وفى «كلمة» (مع) ايحاء باقترانهما ولم تحصر هذه المصاحبة داخل زمن محدد بل هى مطلقة دلالة على أنها لم تفارقها يوما مافى حياتها .

* ويحرص الشاعر على رسم جمال زوجته بكل ما أوتى من مقدرة فنية ، فهذه الزوجة - المثال - ذات رائحة طيبة وآثارها تنفذ مع رائحتها إلى الكون كله وأنفاس الكون الممثلة فى الريح تكتسب عطرها وطيبها من أم حزرة اى جمال اسمى من هذا ؟ وفى استقبال الريح إيحاء بالحركة فى الحياة والتفرد والقيمة الشخصية فهى لاتسير مع الريح أينما تميلها تمل . بل هى لها خصوصيتها والتعبير باذا يفيد اليقين من هذا الاستقبال .

وهذا العطر النفاذ المحسوس يقوى من جمال عطر الباطن ونقاء العرض وقوة الحسب .

* ومن البيئة العربية التى شكلت وجدان الشاعر يرسم صورة النار وهى لاتحرق بل تضىء نار الجمال ونار النجاة ونار الكرم ونار الحب إن النار هنا لاتقتصر على دلالتها المعجمية بل تقترب من النار التى آنسها موسى فقال : إنى آتيكم بقبس أو أجد على النار هدى وهى النار التى كانت توقد ليلا ليهتدى إليها التائهون فى الصحراء والذين يقاتلون أهوال السرى وتقالتهم واقتران السرى وهو المشى ليلا بالنار والنور فيه حلم الشاعر فى الخلاص من هذا الحزن الكئيب الذى أظلم عليه طريقه .

* والدعاء : سبيل الشاعر إلى تخفيف الأحزان وسبيله إلى الأمل فى عودة المحبوبة وسبيله فى موقف التسليم وهو وسيلة التقرب فى الإسلام وقضاء الحاجات .

* وقد أراد الشاعر أن يشرك معه الكون فى تقدير «أم حزرة» فدعا أن تصلى عليها الملائكة

والصالحون والأبرار ولم يكتف بهذا بل دعا لها أن يصلى عليها الحق سبحانه صلاة مستمرة دائمة مادامت مواسم الحج ، ومابقيت فريضة الحج وبرغم شرف هذا المعنى وقوة وعاطفته وصدق بيانه فان وصفه للحجيج لايسمو إلى ذورة الصدق الشعرى هنا ألم يجد غير صفة «ملبدين» وأرى ان الفعل و«غاروا» جاء فى اخر البيت قسرا ، فمعناه أيضا بعيد عن جو التجربة ومفهومه الشعبى ينأى به عن تمثل الجو الشعرى .

• ونلاحظ ان الشاعر وهو يعبر عن رؤيته الجمالية لزوجته لم يفارقها ولم يتحدث عنها بأسلوب الغائب فالحضور هنا حضور ذهنى وشعورى وأسلوبى وفنى ، إنه يخاطبها بكاف الخطاب قائلا «ولقد أراك» ثم يعبر عنها بتاء التأنيث فى قوله «كسيت» وكذلك يقول استقبلتها ، ويقول «رأيت نارك نورت» وحتى فى الدعاء يخاطبها ولايتوجه بالدعاء الى المدعو .. وكأنه لايريد أن تغيب عنه لحظة واحدة صلى .. عليكِ ثم يقول وعليك من صلوات ربك وهذه الصياغة تشير الى شعور الشاعر بعدم التسليم وعدم الرضوخ للحزن ، ورغبته فى انتصار الحب حتى تستمر الحياة .

ويخاطب الشاعر نفسه فى ازدواجية يشكلها الحزن ويتصارع فيها الموت والحب وهذا المنحنى الأسلوبى يسميه البلاغيون «التجريد» وهو أن يشتق الانسان من نفسه شخصا آخر فيخاطبه ويبثه شكواه ويفضى إليه بأحزانه وان كان الشاعر يقاوم طول القصيدة فهو فى هذا الجزء يصل إلى فلسفة الحياة وهى حتمية الموت ، ولكنه لايعنى الفناء بل هو فرقة وفقط ، فالموت معبر إلى حياة أزلية ممتدة .

• والتسليم بحقيقة الموت يبدو فى دموع الشاعر التى حاجمتها دار أم حزرة وللريح والأمطار دور كبير فى شعر جرير فالرياح تتعطر بمقدم أم حزرة والريح هنا تحيى بيتها وتكسبه الجدة حين تزيل عنه تراكمات السنين من غبار ونسيان والأمطار تحيى ويمكن أن تميت إذا أصبحت سيلا غير محدود .

• وفى هذا البيت تعبر الفكرة الزمنية عن حقيقة الشعور ، فالزمن فى هذا البيت المتمثل فى أوعيته من الأفعال تحيى - تجده - تميت له صفة الحضور الدائم والايغال فى المستقبل لانها أفعال مضارعة وهى مستمرة آنا ومستقبلا وهذا الاستمرار حينما يقترن بالنظرات والعبرات فهو شريط الذكرى المتصل وهو بركان الأحزان الفياض بلهب الأسى واللوعة والشوق .

والشاعر فى أسلوب التشبيه يتكىء كثيرا على أداة واحدة فى هذا النص وهى كأن فقد وردت هذه الأداة ثلاث مرات فى البيت الخامس حيث يقول «عصب النجوم كأنهن صوار» .

وفى البيت التاسع حيث يقول : «فكأنما بجوائها الأمطار

وفى البيت الثامن عشر يقول :

وكـأن منزلـة لهـا بجـلاجل   وحى الزبـور تجـده الأحبـار

وهو بهذا التشبيه يضفى قداسة دينية على دار أم حزرة . ولكن التشبيه لايؤدى غرضه كاملا ، ولايعبر عن مكنون نفس جرير وكلمة الأحبار هى التى جعلت الشاعر أسير كلمة الزبور .. وكان يمكن أن يقيم علاقة بين أشيائه الشعرية غير هذه العلاقة التى استثقلها ، وأسلوب النفى والأمر لم يستغلهما الشاعر كثيرا اللهم الا فى الدعاء فى قوله : فسقى ، وصلى

ولكن الأمر الحقيقى لم يأت الا فى هذا البيت .. وكذلك النفى :

لاتكثـــرن اذا جعلت تلومنــــــى   لايذهبــن بحلـــمك الاكثـــار

* والموقف الشعرى هنا يستوجب هذه الصياغة فهو يشعر بلوم داخلى على ذلك الحزن لفراق الزوجة ، وربما تخيل أن وجوه أصدقائه وأعينهم تقول ذلك : فانطلق من واقع جرحه وحزنه يأمر ويؤكد والأمر والتوكيد يصبهما فى قالب الزمن الآنى والمستقبلى : لاتكثرن ، ويأتى بالفعل «جعلت وتلومنى» ليعلن عن استمرار هذا على اللوم ، ومن ثنائية الحب والموت تشرق فلسفة الحياة التى أوجزها الشاعر فى البيتين التاليين :

كان الخليط هم الخليط فأصبحوا   متبدليـــن وبالديـــار ديــــار
لايلـــبث القرنـــاء أو يتفرقـــوا   ليل يكـــر عليهـــم ونهـــار

و ... برغم ان البيتين يعبران عن فلسفة واحدة لكن الفكرة الزمنية فيهما متباينة فالبيت الأول يصاغ فى قالب «الزمن الماضى» وفيه فعلان ماضيان : كان ، أصبحوا وهذه الصياغة تفسر واقع الشاعر أو قل فلسفته التى تؤمن بالموت ، والزمن فى البيت الثانى هو الحاضر والمستقبل والأفعال فيه وعاء لذلك يلبث - يتفرقوا - يكر .

وكما ان الزمن حاضر ومستقبل فالحياة فراق وقران والكون ليل ونهار إنها فلسفة الصراع التى تنبثق من ثنائيه الحب والموت والأشياء كلها تمتزج ببعضها فى دورة واحدة . كما امتزجت الحقيقة الواحدة فى البيتين السابقين فالفاصل بين الأزمنة المختلفة غير منطقى ولادقيق وأكاد أقول إنه فاصل شعورى « فالماضى يلتقى بالمستقبل عند ذلك الزمن الذى نسميه الحاضر والزمن الحاضر لايعدو ان يكون نقطة اتصال ليس من السهل تحديد مداها وكلمة الآن كلمة غامضة عسيرة التحديد غير أنا نقبلها على غموضها ولانعنى فى حياتنا العادية بتحديدها وكل مانتطلبه لتكون وصلة بين أمور انتهت وأمور لم تنشأ بعد قبلها الماضى وبعدها المستقبل ولكن الأحداث الماضية تختلف أيضا فى زمنها حين يقارن بعضها ببعض فمنها مايسبق الماضى ومنها مايليه وكذلك المستقبل وأحداثه حين يقارن بعضها ببعض فهناك أحداث مستقبلة يمكن ان يكون قبلها أحداث يمكن أن يكون بعدها أحداث وكلها فى الزمن المستقبل .. ومن هنا نشأ ذلك التقسيم الزمنى المسمى بالتقسيم السباعى عند كثير من المحدثين .

قبل الماضى ----- الماضى ----- بعد الماضى ----- الحاضر
قبل المستقبل ----- المستقبل ----- بعد المستقبل[1]

---

(١) انظر «أسرار اللغة ص ١٩٧ - د/ ابراهين أنيس» .

ثالثا – الرؤية الاسلامية وأثرها فى تشكيل التجربة :-

جرير شاعر عربى مسلم وسلوكه فى الحياة مزاج من عروبته ومن إسلامه وهذه التجربة التى عبر عنها الشاعر وحاولنا رصد بعديها الفكرى والجمالى لم نستطع أن نكون بمنأى عن النبض الاسلامى فى كلا البعدين السابقين فللاسلام قيمة الموضوعية والفنية وللبيئة الاسلامية مستحدثاتها من من الألفاظ والأفكار والأساليب والأخيلة .

فالقصيدة فى رثاء الزوجة وهذا الموضوع نفسه يعد غرضا مسنحدثا و هو رثاء الزوجات ايمانا بقيمتين أرساهما الاسلام (١) قيمة المرأة التى كانت توأد فى الجاهلية وبالتالى لاتستحق البكاء ولاالرياء بعد موتها وهى بعد الاسلام شريك فى كل شئ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن (٢) قيمة الزوجة ودورها فى المجتمع ولذلك توجه الشاعر يرثى زوجته ذلك الرثاء المتدفق العاطفة الصادق النبرة ولم تعد المرأة العشيقة هى محل اهتمام الشعراء المسلمين . وهذه الرؤية الاسلامية فى هذه التجربة جعلت الشاعر يستخدم معجما إسلاميا فى كثير من ألفاظه وعباراته ومعانيه واخيلته ، فأما الالفاظ والعبارات فهى الحياء زرت قبرك ، جزاك ربك ، نعم القرين ، مكرمة المساك ، مكرمة العشيرة ، سكينة ووقار والعرض لادنس ولاخوار .
وأبيات بأكملها تعد من مستحدثات البيئة الاسلامية :

صلى الملائكة الذين تخيروا	والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما	نصب الحجيج ملبدين وغاروا

* غضب المليك عليكم القهار

كانت إذا هجر الحليل فراشها	خزن الحديث وعفت الأسرار

والألفاظ والعبارات السابقة إن كان لها نظير فى البيئة الجاهلية فهى هنا اكتسبت مدلولا جديدا فى الإسلام والشاعر من منظور الاسلام يرى ويتحدث وحين تتسم الألفاظ بالحداثة فالمعانى تتسم أيضا بهذه الحداثة .

فالبيت الأول يفيض بمعنيين «الحياء» و«زيارة القبور» وهما مصطلحان إسلاميان والرسول يقول «الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الايمان» ويقول «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» .

وينقل الشاعر عادة المسلمين فى الدفن ويصور منظر الدفن وساعه إيداع الجثمان فى القبر والتعبير عن الزوج بالعشير معنى إسلامى جديد مأخوذ من قوله سبحانه «وعاشروهن بالمعروف» .

وحسن معاملة الزوج لزوجته هدف إسلامى نبيل والآيات القرآنية فى هذا الباب كثيرة والأحاديث النبوية كذلك وحين يقرر الشاعر أنها رحلت مامسها صلف ولا إقتار فهو يؤكد المعنى الاسلامى فى معاملة الزوجة وأنها كما عبر عنها القرآن الصاحب بالجنب «والمصطفى عليه الصلاة والسلام يقول :»

«اتقوا الله فى الضعيفين : اليتامى والنساء»

* وحسن معاملة الزوجة لزوجها وحسن معاملة الجار من قيم المجتمع الإسلامى الجديد وأدرك الشاعر هذه الحقيقة حين تشبع بتعاليم الاسلام ونسى قيم المجتمع الجاهلى ولم ينغمس فى قيم المجتمعات الأخرى التى أثرت فى بعض المسلمين فاتجه الى التحرر والالحاد وضعفت فى نفسه قيم الدين الاسلامى ، ان البيت التالى ينطق برؤية الاسلام لمعاملة الزوج ومعاملة الجار :

كانت مكرمة العشير ولم يكن يخشى غوائل أم حزرة جار

* وفى وصف جمالها وطباعها لايميل الى الوصف الحسى فقط ، بل يمزج الحس بالوعى بالسلوك الاجتماعى بالطبيعة النقية كل ذلك فى قدرة عجيبة ، تنبىء عن ادراك حقيقى لوظيفة المرأة فى الاسلام ، فجمالها مصحوب بسكينة ووقار وعرضها لادنس ولاخوار ، اليس هذا التقويم للجمال هو اسمى تصور لجمال المرأة فى الاسلام فالمصطفى عليه الصلاة والسلام يقول :

ولاتتزوجوهن لمالهن فعسى مالهن أن يطغيهن

ولاتتزوجوهن لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن

ولكن تتزجوهن لدينهن .

وفى حديث اخر : فأظفر بذات الدين : تربت يداك .

* والدعاء سلوك اسلامى فقد اكثر منه الشاعر يقول :

فجزاك ربكِ – وسقى صداك وسقى صدى حدث ، صلى الملائكة عليك وعليك من صلوات ربك كلما ، غضب المليك عليكم القهار .

* وتعاقب الليل والنهار يقين إسلامى وفى هذا التعاقب تفنى أجيال وتولد اجيال فحكمة الحياة وفلسفتها ثمرة هذا التعاقب والشاعر أنهى تجربته بهذه الفلسفة الاسلا ية . وحتى فى موقف الهجوم والدفاع عن زوجته يدعو على الفرزدق وقومه بدعاء إسلامى : غضب المليك عليكم القهار وتأمل البيت الأخير :

كانت إذا هجر الحليل فراشها خزن الحديث وعفت الأسرار

* ألا يعد هذا البيت صدًى عاطراً لقول المصطفى عليه السلام .... [خير النساء : من إذا امرتها أطاعتك واذا نظرت إليها سرتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ودينها]

* وخيال الشاعر لم يستطع الافلات الكامل من أسر البيئة البدوية وهو فى ذلك صادق . لأن الطبيعة لم تتغير فالجبال ، والوديان والسهول ، كل شئ كما هو وتأثيره فى النفوس والمشاعر باق . ولكن رؤية الانسان له قد تختلف حسب مزاجه وتجربته ، فالسحاب والمطر من ظواهر الطبيعة وهما من نعم الله وقد ساقهما الشاعر فى جو إيحائى فى البيت الثالث ، ووصفه لها بالجوهر المكنون يعد خيالا اسلامياً مستوحى من قوله سبحانه وتعالى «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون وتشبيهات الشاعر وأخيلته فى النص أكثرها مستمدة من معطيات البيئة التى تمثل وجوده وكيانه .

* وبعد فهذا النموذج من الرثاء الصادق والحب الخالص والصراع بين الحب والموت ، وفى هذا الرثاء رسم الشاعر شخصية المرأة المسلمة وموقف الرجل المسلم منها حبا ووفاء وتقديرا فى صورة فنية دقيقة معبرة تشهد للشاعر بصدق التجربة ونضوج الرؤية واكتمال الاداة .

□ □ □

مقومات القائد الاسلامى

((فى مدح المهدى))

شعر : مروان بن أبى حفصه

١٠٥ - ١٨٢هـ

- الشاعر : نسبه ونشأته :

اسمه مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصه ، وكنيته أبو الهندام أو أبو السمط . ولقبه ذو الكمر . وأصل جده من يهود خراسان ، وكان مولى لمروان بن الحكم وهبه له عثمان بن عفان ، ويقال أنه أبلى فى الدفاع عنه حين حوصر فى داره وقتل ، فأعتقه مروان جزاء بلائه ونزل له عن أم ولد يقال لها سكر ، فأنجبت له بنتا سماها حفصه ، فحضنها وكنى بها . وحين ولى مروان ابن الحكم المدينة لمعاوية بن أبى سفيان جعله على خراج اليمامة وتزوج هناك بامرأة من بنى حنيفة وضعت له ابنه يحيى وأبناء اخرين ، وتزوج يحيى بنت زياد بن هوذه من بنى أنف الناقة ، فأنجبت له ابنه سليمان ، ورزق سليمان بابنه مروان اليمامة سنة خمس ومائة للهجرة .

وقد نشأ باليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى فى أعراقه . فقد توارثت أبناء أسرته نظم الشعر كابرا عن كابر ، وتناسق منهم عشرة على الولاء مذكورون بالشعر ، أنشدوا الخلفاء وأخذوا الجوائز وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فى الدولة الأموية والدولة العباسية ، واستطاع أن يكسب ود العباسيين وأن يتحول الى مدافع عن دعوتهم السياسية وأن يقيم الحجج على العلويين ويقتبس من القران الكريم معانى أشعاره .

وتفوق فى شعر المديح أكثر من أى غرض آخر . ولم يقتصر على مديح الخلفاء ، فقد مدح البرامكة وزراء الرشيد وبخاصة يحيى بن خالد البرمكى وولديه ، الفضل وجعفر ، وكانوا جميعا يجزلون له العطاء كما مدح عبد الله بن طاهر .

وكان بخيلا برغم كثرة أمواله وعده أبو عبيده معمر ابن المثنى من البخلاء اللئام .

---

(١) اختلف المؤرخون حول السنة التى مات فيها فمنهم من يقول سنة ١٨٢ وهو رأى الاغلبية ومنهم من يقول سنة ١٨٩ ، ١٩٠هـ

وأما عن شعره : فالقدماء يجمعون على أنه كان من عبيد الشعر . يريدون أنه كان يتأتى فى صنع قصائده ويطيل النظر فيها لتدقيقها وتنقيحها ويقول الشاعر « كنت أعمل القصيدة فى أربعة أشعر ، وأحككها فى أربعة أشهر ، وأعرضها فى أربعة أشهر ، ثم أخرج بها للناس » .

جو النص :

النص اشادة بالخليفة « المهدى » وتبيان لمناقبه ومآثره ودفاع عن حق العباسيين فى الخلافة العباسية . وكان المهدى أول خليفة عباس يمتدحه مروان بن أبى حفصة فقد وفد عليه بعد وفاة أبيه « المنصور » ولم يكد يلقى بين يديه أولى مدائحه حتى بهره بمديحه ، ولم يكن مديحا عاديا بالكرم والشجاعة والخلال الكريمة التى يقدرها العرب دائما بل كان أيضا مديحا سياسيا ، عمد إلى الدفاع عن حقوق العباسيين فى الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقيق .

والمهدى ثالث الخلفاء العباسيين كان يحرص على تعميق الإيمان فى نفوس رعيته فوجه جهده الى محاربة الملحدين والزنادقة .

ويقول المسعودى فى المهدى : انه أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه ، واعلانهم باعتقادهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى ، وابن ديصان ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمة من الفارسية والفهلوية الى العربية ، ومما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن أياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت اراؤهم فى الناس ، وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم فأوضحوا الحق للشاكين .

فهل بعد هذا يعد مديح المهدى نفاقا كما يدعى بعض النقاد الذين يهاجمون شعر المديح كله ، وهل بعد مروان عن الحقيقة حينما قال عن المهدى :

أحيا أمير المؤمنين محمد	سنن النبى حرامها وحلالها
ملك تفرع نبعه من هاشم	مد الاله على الانام ظلالها

((النص))

طرقتك زائــرة فحــيِّ خيالهـــا	بيضاء تخلــط بالحيــاء دلالهــ
قادت فؤادك فاستقــاد ومثلهـــا	قاد القلـوب إلـى الصبا فأمالها
وكأنمـــا طرقت بنفحـــة روضة	سحت بهـا ديم الربيـع ظلالهـــا
باتت تسائل فى المنـام مُعَـــرِّسا	بالبيـــد أشعث لا يمل سؤالهـــا
فى فتيـة هجعــوا غرارا بعدمـــا	سئموا مراعشة السرى ومطالها
فكـــأن حشو ثيابهـــم هنديَّـــةٌ	نحلت وأغـفلت العيـون صقالهـــا
وضعوا الخدود لدى سواهم جنح	تشكـو كلـوم صفاحهـا وكلالهـــا
طلـبت أمير المؤمنيـــن فواصلت	بعــد السرى بغدوهـــا آصالهـــا
نزعت الـيك صواديـــا فتقـــاذفت	تطـوى الفـلاة حزونهـا ورمالها
يتبعـــن ناجيـــة يهــز مراحهـــا	بعد النحــول تليلهـــا وقذالهـــا
هوجـــاء تدرع الربـــا وتشقهـــا	شق ال شمُوس اذا تراع جلالها

---

(١) طرق زار وألم .. والطارق الذى يجىء ليلا ومضارع طرق : يطرق من باب دخل يدخل والطارق النجم الذى يقال له كوكب الصبح : ومعنى طرقتك أى زارتك ليلا .

(٢) استقاد : خضع وانقاد والانقياد هو الخضوع :، الصبا : الميل الى الفتوة واللهو ، وهو من صبا يصبوا : صبوة وصبوا .

(٣) النفحة : الدفعة من الريح ، سح : انهل بغزارة ، الديم : جمع ديمة وهى السحابة .

(٤) المعرس : المسافر الذى ينزل اخر الليل ليستريح ثم يرتحل وهو مأخوذ من التعريس : وهو نزول القوم فى السفر من اخر الليل يقعون فيه وقعة للاستراحة ثم يرتحلون . البيد : جمع بيداء وهى الارض المقفرة أشعث : مغبر الرأس والشعص بفتحتين انتشار الامر يقال لم الله شعتك أى جمع أمرك المتتشر .

(٥) هجع : نام ، الغرار : النوم القليل ، المراعشة : تحريك الرأس فى السير من النوم ، السرى : السير ليلا : ومنه قوله سبحانه : ((سبحان الذى اسرى بعبده ليلا – وذكر كلمة « ليلا » للتأكيد . المطل : التسويف : يقال مطله يديته مطلا اذا سوفهُ بوعد الوفاء مرة بعد أخرى ه ويقال مطلت الحديدة مطلا : أى مددتها وطولتها – والمعنى هنا أنهم ملوا من السير ليلا .

(٦) الهندية : السيوف ،تحت تاكلت ، الصقال : الجلاء والشحذ .

(٧) السواهم : الضوامر . الكلوم : الجراح ، الصفاح : جمع صفحة وهى الجنب الكلال : التعب والاعياء .

(٨) السرى : السير فى الليل (بيت رقم (٥)) ، الغدو : أول النهار . الاصيل : أخر النهار .

(٩) نزعت : اشتاقت : ونازعت النفس الى الشىء نزوعا ونزاعا :

اهتاقت : واما نازعت فى كذا منازعة ، ونزاعا فبمعنى خاصمته ، وتنازع القوم : اختلفوا ونزع عن الشىء نزوعا كفى واقلع عنه .

الصادى : العطشان ، تقاذفت : أسرعت ، الفلاة : الارض المقفرة ، الحزن : ما غلظ من الارض .

(١٠) الناجية : الناقة السريعة ، المراح : النشاط فى السير ، التليل : العتق ، القذال : جماع مؤخر الرأس والمعنى أنه يصف الناقة بالنشاط بعد السامة والجهد .

(١١) الهوجاء : التى تسرع فى سيرها ، تدرع : تجتاز وتقطع ، الشموس : الصعب النفور ، تراع : تفزع ، حلالها : غطاؤها الذى تليه لتصان به .

تنجو اذا رفـع القطيـع كمـا نجت　　خرجـاء بادرت الظـلام رئالهـا
كالقوس ساهمـة أتتك وقد ترى　　كالبـرج تملا رحلهـا وحبالهـا

★ ★ ★

أحيـا أميـر المؤمنيـن محمـد　　سنـن النبى حرامهـا وحلالهـا
ملك تفـرع نبعـه من هاشم　　مدَّ الالـه علـى الأنام ظلالهـا
جبل لامتـه تلـوذ بركنـه　　رادى جبـال عدوهـا فأزالهـا
لم تغشها مما تخاف عظيمـة　　الا أجـال لهـا الأمور مجالهـا
حتـى يفرجهـا أغـر مبـارك　　ألفـى أبـاه مفرجـا أمثالهـا
ثبت علـى زلل الحـوادث راكب　　من صرفهـن لكل حال حالهـا
كلتـا يديك جعلت فضل نوالهـا　　للمسلمين وفـى العـدو وبالهـا

---

(١) تنجو : تسرع ، الخرجاء : النعامة ، الرئال : جمع رال ، وهو ولد النعام . بادرت الظلات رئالها : أى بدرت الظلام وأسرعت الى رئالها .
(٢) ساهمة : ضامرة . البرج : الحصن .
(٣) حرامها وحلالها : التحريم والتحليل ، ومن سنن النبى تحريم الحرام وتحليل الحلال .
(٤) النبع : شجر تتخذ منه الفلى وتتخذ من أغصانه السهام : ويفرده نبعه : والمراد هنا أن الخليفة المهدى ينتسب الى بنى هاشم قوم المصطفى عليه السلام .
(٥) تلوذ : تعتصم ، رادى : فانى .
(٦) اجال الامور مجالها : وضع الامور فى نصابها .
(٧) يفرج : يزيل الغم ويكشف الامور . تقول فرج الله غمه تفريجات ، أغر : أبيض ، أو شريف و « غرة » قومه أى سيدهم ، وغرة كل شىء أوله وأكرمه الغى : وجد .
(٨) اثبت : الفارس الشجاع والتثبيت : الثابت العقل ، والثبت : الثبات نقول لا أحكم بكذا الا يثبت أى بحجة ، الصرف : التغير وصرف الدهر حدثانه ونوائبه ومن معانى الصرف : التوبة وأيضا الحيلة يقال : لا يقبل منه صرف ولا عدل وقال الله تعالى : « فما يستطيعون صرفا ولا نصرا » .
(٩) النوال : العطاء ، الوبال : الهلاك .

وقعت مواقعها بعفوك انفس	اذهبت بعد مخافة أوجالها
أمنت غير معاقب طرادها	وفككت من أسرائها أغلالها
وجعلت نفسك خير نفس دونها	وجعلت مالك واقيا أموالها

هل تعلمون خليفة من قبله	أجرى لغايته التى أجرى لها
طلع الدروب مثمرا عن ساقه	بالخيل منصلتا يجد نعالها
قودا تريع الى أغر لوجهه	نور يضىء أمامها وخلالها
قصرت حمائله عليه فقلصت	ولقد تحفظ قينها فأطالها
حتى اذا وردت أوائل خيله	جيحان بث على العدو رعالها
أحمى بلاد المسلمين عليهم	وأباح سهل بلادهم وجبالها

---

(١) الوجل : الخوف .

(٢) الطراد : المطرودون المنبذون ، الاسراء : المأسورون وسمى الاسير بهذا الاسم لانه يشد بالاسار وهو القيد وهو (تير) يصنع من جلد غير مدبوغ وسمى كل أخيذ اسبراوان لم يشد به الاغلال : القيود ومفردها « الغل » يقال فى رقبته غل من حديد .

(٣) نصب : أقام ، ونصب بكسر الصاد بمعنى تعب ، واقيا : حافظا .

(٤) الغاية : مدى الشىء والجمع « غلى » كساعة وسماع .

(   ) الدروب : الطرق الضيقة والمسالك الخفية ، المشمر : المتهيىء للاسر ، الجاد فيه ، المجتهد له مفصلتا .

(٥) القود : جمع أقود وهو الذلول السهل من الخيل تربع : تصغى وترجع .

(٦) الحمائل : نجاد السيف والرجل بمدح بالطول ، ولذلك يذكر طول حمائله ، تقاصدت : انزوت ولم تكر القين : الصانع ، تحفظ : احتاط .

(٧) وردت : بلغت – والود خلاف الصدر والايراد خلاف الصدر والايراد خلاف الاصدار لان الصدر : الذهاب عن الماء والورد الذهاب الى الماء والورد يكون أحيانا بمعنى يوم الحمى تأخذ صاحبها وقتا دون وقت .

جيحان : نهر المصيصة بالثغر الشامى ومخرجه من بلاد الروم ، بث : نشر ، الرعال : جمع رعيل وهو الطليعة المتقدمة من الخيل .

(٨) أحمى بلاد المسلمين : جعلها حمى لا يقترب منه الاعداء ولا يجترئون عليه : قال الشاعر وترعى حمى الاقوام غير محرم « علينا ولا يرعى حمانا الذى يحمى . وتثنيه « الحمى » محميان بكسر الحاء وسمع بالواو فيقال « حموان » .

أدمت دوابـر خيلـه وشكيمهـا	غاراتهـن وألحـقت آطالهـا
لم تبق بعد مقادهـا وطرادهـا	إلا نحائرهـا وإلا آلهـا
هل تطمسون من السماء نجومها	بأكفكـم أم تستـرون هلالهـا
أم تجحدون مقالـة عن ربكـم	جبـريل بلغهـا النبـى فقالهـا
شهـدت من الأنفـال آخر آية	بتراثهـم فأردتـم ابطالهـا
فذروا الأسود خوادرا فى غيلها	لاتولغـن دماءكـم أشبالهـا
رفع الخليفة ناظرى وراشنـى	بيـد مباركـة شكـرت نوالهـا
وحسدت حتى قيل أصبح باغيا	فى المشى مترف شيمة مختالها
ولقد حذوت لمن أطاع ومن عصى	نعلا ورثت عن النبـى مثالهـا

---

(١) الداير : المؤخر ، الشكيم : الحديدة المعترضة فى فم الفرس والاطال : جمع اطل وهو منقطع الاضلا[illegible] من الحاضرة ، الحقت : ضمرت .

(٢) المقاد : مصدر ميمى من قاد اذا أخذا الداية من أمامخا الطراد : عدول الخيل ، النحائر : الطباع الال : م[illegible] من الفرس أو شخصه .

(٣) تطمسون : تمحون تقول انطمس الشىء أى امحى ودرس ، والفعل طمس يأتى متعديا ولازما .

(٤) تجحدون : تنكرون عم علم – فالجحود هو الانكار مع العلم والجحد بسكون الحاء قلة الخير .

(٥) اخر اية من سورة الانفال هى « والذين امنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ان الله بكل شىء عليم .

تراثهم : ميراثهم فى الخلافة . فهم ورثة النبى لانهم أبناء عمه والتاء فى تراث يدل عن الواو لان المادة ورث .

(٦) ذروا : اتركوا ، الخوادر جمع خادر وهو الاسد المقيم فى عرينه القيل : جمع غلية وهى الاجمعة ومعناها الشجر الملتف والاجم بضمتين الحصن لا تولغن : أولغ الكلب : اذا ج[illegible] له ماء يضرب فيه بأطراف لسانه وأكثر ما يكون الولوع فى السماع .

أشبال : الشبل : ولد الاسد والجمع أشبل وأشبال .

(٧) راش : اعطى ، النوال : العطاء .

(٨) الباغى : الجائر عن العدل ، المترف : المنعم الشيمة : الطبيعة والخلق ، المختال : المتكبر المتبختر

(٩) حذوت الفعل بالفعل : قدرتها بها وقطعتها على مثالها وقدرها واحتذبت به اذا افتديت به فى أموره والمعنى انه افتدى بالنبى عليه السلام فى أفعاله حذر الفعل بالفعل .

القراءة الموضوعية :

- أ -

يبدأ الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية شأن أكثر الشعراء من ذلك الوقت امتدادا للتقليد العربى السائد فى ذلك الوقت منذ العصر الجاهلى . وصف الحبيبة الزائرة بالبياض والدلال والحياء وحياؤها ممتزج بدلالها وهذه القيمة اجمالية يعتد بها العربى دائما ولذلك ملكت هذه الزائرة القلوب وقادتها الى الصبا والمسرات وكأن هذه الحبيبة لفرط تعلق القلوب بها أتت مع الريح فهى نسمة ربيعية هبت على المتعب المسافر الذى نزل ليستريح فى اخر الليل ليعاود رحلته من جديد .

ثم يصف الشاعر القافلة التى اتجهت إلى الخليفة وقطعت الفيافى والقفار ولقد بلغ الضعف بأفرادها الى حد أن ضلوعهم أصبحت كالسيوف المتآكلة وقد باتت أضلاعهم تشكو الجراح والتعب والإعياء .

وهذه القافلة واصلت السير ليلا ونهارا وهى مشتاقة تطوى الصحارى وتقدمها ناقة نشيطة عاد اليها نشاطها حينما شعرت بالقرب من مجلس الخليفة . وهى تجتاز الربا فى خفة وبسرعة وتسرع مثل النعامة التى تخاف على أبنائها من خطر الظلام وهى ضامرة كالقوس ، والضمور صفة محببة فى النوق والجياد ، يقول الحق سبحانه : ((وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق)) سورة الحج .

- ب -

ان أمير المؤمنين محمدا أعاد للسنة الكريمة مكانتها فهو قد أحياها وسار على نهج النبى الكريم وهو غصن فى الشجرة المحمدية التى أسعد الله البشرية بظلالها الندية الوارفة ، وهو شجاع مهيب كالجبل به تحتمى أمته لانها توسمت فيه عزة الاسلام حيث حطم هيبة الأعداء . وأنه يضع الامور فى نصابها فى أشد المواقف حرصا . ومن ثمار هذا التصرف الحكيم شعور أمته بالأمن وسلامتها من المخاوف والتهديد ، وقد تميز بالثبات والقدرة على تفريج الامور المعقدة وورث هذه الصفة عن أبيه الذى كان يحل أعقد المشكلات ويبدد عاتى الازمات . وليس غريبا أن يكون أمير المؤمنين على هذه الصفة التى كان عليها أبوه « أبو جعفر المنصور » (١٣٦ - ١٥٨ هـ) فعقلية الخليفة « المهدى » تتسم بالحيوية والذكاء لانه يعطى لكل مشكلة الحل المناسب .

ويتجه الشاعر الى الخليفة فيخاطبه قائلا : إن يديك تؤديان وظيفتين متقابلتين . الخير والوبال . فخيرهما للمسلمين ووبالهما ينصب على الاعداء فهما مصدر الكرم والشجاعة .

وقد عرفت فى ظلك المؤمن النفوسُ مواقعَها الصحيحة وتثبيت أقدامها وبددت خوفها وأنت أمنت المنبوذين ولم تعاقبهم وعفوت وأنت قادر عن الاسرى ، وحطمت قيودهم ، ولم تكتف بهذا بل بذلت النفس والمال . فجعلت نفسك فداء لكل النفوس ، وبذلت مالك طواعية ، ونيلاً فى سبيل الحفاظ على أموال المسلمين .

- جـ -

هل عرفتم خليفة قبل المهدى سار نحو غاياته وجد فى تحقيقها فأجتاز عصى « الدروب وخفايا الطريق » لا يأبه بالمخاطر وخيله كريمة هِن اشارته .. بنور وجهه تستضىء . فهو الأعز المبارك وله من الصفات الخلقية والجسمية ما يؤهله للبطولة والاقدام وعدة الحرب لم تكفه ما يتمتع به من قوام ممشوق بالغ الطول ولقد أدرك صانع السيوف هذه الميزة وأطال عدة الحرب التى صنعها له - وفى ذلك خصوصية للمهدى ميزة كبرى .

وقد ترجم هذه الصفات إلى سلوك بطولى فخيله قد اقتحمت نهر جيحان ، واكتسحت العدو الرابض هناك فى بلاد الروم ، وهو بهذا الصنيع البطولى الذى جسد العزة العربية والاسلامية جعل من بلاد المسلمين حمى لا يجرؤ الاعداء على الاقتراب منه ، بينما أرض الاعداء نمدت حقا مباحا للمسلمين بكل ما عليها من سهول وجبال .

وقد ألحقت خيول المهدى الضرر البالغ بغارات الأعداء وجعلت الدماء تسيل من أجسادهم وخيولهم ، ولم يبق منهم سوى بقايا رجال وأشباح خيول .

- د -

يخاطب الشاعر المناوئين للخليفة المهدى وينعى عليهم جحودهم ويسائلهم هل تستطيعون أن تطفئوا أضواء النجوم حين تضعون أكفكم أمام عيونكم ، وهل تستطيعون أن تحجبوا نور الهلال الذى يتوسط كبر السماء ، وأنتم أيها الجاحدون بمحاولاتكم التمرد على بنى العباس تنكرون مقالة القران الكريم المنزل على رسوله الامين ولو قرأتم القرآن لعرفتم أن الخلافة من حق ال العباس فهم مقدمون على ابناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم « فاطمة الزهراء » وهم العلويون أو الشيعة اذ العم مقدم على الاسباط فى الوراثة على نحو ما هو معروف فى الشريعة الاسلامية . وقد ظهر دفاعه هذا بصورة أوضح فى قوله يخاطب المهدى .

يابن الذى ورث النبى محمدا	دون الاقارب من ذوى الارحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الانعام[1]

(١) يريد الشاعر أن يستدل على رأيه بقوله سبحانه « وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » وهذا استدلال غير صحيح .

ويقول ابن المعتز فى كتابه . طبقات الشعراء مبيناً أن المعنى السابق قد سرقه مروان بن أبى حفصه .. وبرغم ذلك نجده يكرره كثيرا ويأخذ عليه مكافات جمة .

يقول ابن المعتز : « وحدثنى أبو مالك عن أبيه أن عبيد الله بن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتى الحسن بن على فقال : أنا مولاك - وكان قديما يكتب لعلى بن أبى طالب عليه السلام . فقال فيه مولى لتمام بن العباس بن عبد المطلب :

« جحدت بنى العباس حق أبيهم   فما كنت فى الدعوى كريم العواقب »

متى كان أولاد البنات كوارث   يحوز ويدعى والدا فى المناسب

فسرق مروان هذا المعنى وأودعه قصيدته التى يقول فيها :

أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثة الاعمام

فأخذ بهذا البيت مالا عظيما ..

ويحذر أعداء الخليفة وينصحهم أن يتركوا الاسود فى عرينها .. كى لا تثب عليهم فتمزقهم وتلغ فى دمائهم ، والمراد بالأسود هنا هم بنو العباس .

ثم يعترف بفضل الخليفة عليه حيث غمره بنواله ولم تحرمه يده المباركة وقد حسده الناس على هذه المنزلة لدى الخليفة واتهموه بالتكبر والترفع عليهم وليس من الغريب أن يفعل المهدى ذلك فانه قد ورث عن الرسول الكريم ما يتحلى به من صفات . وهو يحذو حذو النبى ويقتدى به .

(أ)

القراءة الجمالية :

طرقتك زائرة « البيت » يستعمل الشاعر هنا أسلوب التجريد وهو أن يشتق الانسان من نفسه شخصا اخر يخاطبه امعانا فى ابراز المعنى واثارة الانتباه . وهو من الاساليب البلاغية التى سادت فى الشعر العربى القديم .

ويمكن أن نفسر الخطاب هنا بأنه خطاب لامير المؤمنين « المهدى » وأن هذه الزائرة هى الخلافة . والشاعر فى هذه القصيدة كان يهنىء ممدوحه بالخلافة - وقد كافأه الخليفة بمائة ألف درهم عن كل بيت .

وقد طافت الخلافة بوجدان المهدى أمنية ثم بدت له واقعا متحكما فى نفسه . ويقوى هذا التفسير المعانى التى أضفاها الشاعر فيما بعد على الموكب السارى الى الخليفة ويشبه هذه الزائرة بأنها نسمة هبت مع الريح فى زمن الربيع فعمت الخضرة وانتشرت الظلال ، وفى ذلك رمز الرخاء والاصلاح الذى يتمنى الشاعر أن يقوى من جسد الامة فى ظل المهدى .

وهذه النسمة طافت بذلك الاشعث وساءلته وهو لا يمل سؤالها وهذا المعنى المجسم فى هذا التساؤل يؤكد التفسير السابق لان المسافر الاشعث لا يتمنى سوى الانصاف ، والتعبير بالمضارع فى قوله : « تسائل يشير إلى استمرار المساءلة وعدم انقطاعها .

« فكأن حشو ثيابهم هندية » يشبه الضلوع بالسيوف المتاكلة من فرط التعب ، والاتيان بهذه الصورة أمام الخليفة له دلالة فنية فالشاعر يريد أن ينبهه الى هذه الفئة الاجتماعية الكادحة .

ويلجأ الشاعر الى الطباق ولا يتكلفه فى قوله : « فواصلت بعد السرى بغدوها آصالها » والعطف بالفاء فى قوله فواصلت يفيد الاسراع فى الوصول الى الخليفة لان الفاء تفيد الترتيب والتعقيب ، والبلاغة كما قال عبد القاهر : « توخى معانى النحو فى الكلمات العربية » .

ويرسم الشاعر عدة صور للناقة وهى فى طريقها الى الخليفة . ويلجأ فى هذا التصوير الى التشبيه . فهى سريعة وعبر عن هذه السرعة بكلمة « هوجاء » ويؤكد هذا المعنى حينما يشبهها بالدابة الشموس وهى تجتاز الربا وتشقها . وكأن الشاعر يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، ويشبهها فى لهفتها للوصول الى الخليفة بالنعامة التى تشق الظلام فى خفة نادرة لكى تنقذ ولدها من وحشة الظلام الرهيب ، ويشبهها حين وصلت الى الخليفة بالقوس والبرج فى الشموخ . وفى هذه الصورة التى يرسمها الشاعر للناقة ايحاء بأن الناقة ترمز للقوة التى يأمل أن يكون

الخليفة متحليا بها دائما . أو أن الناقة والركب السارى يمثلون فى مخيلة الشاعر الرعية التى يشملها عدل الخليفة وعطفه وهم جنده عند اللقاء كالقوس خفة ومضاء وأيضا كالبرج شموخا وإباء .

(ب)

أحيا .. سنن النبى استعارة مكنية حيث شخص السنن وجعلها كائنا حيا وحذف المشبه به وأثبت له لازما من لوازمه وهو الحياة ، وفى هذا مبالغة من الشاعر لان سنن النبى لم تمت ويشفع للشاعر أن خياله غير مبتكر فالتعبير بقوله « أحيا » له نظائر كثيرة عند غيره من الشعراء .

وفى قوله : « حلالها وحرامها » يبدو الطباق العفوى .

ويصور الشاعر بنى هاشم فى البيت (١٥) شجرة سامقة يفىء الى ظلها الناس ويصور المهدى غصنا فى هذه الشجرة . وفى هذا التصوير البارع دعوة الى توطيد ملك بنى العباس لانه منتسب الى أصول بنى هاشم ، وفى اختيار كلمة « النبع » ايحاء بالقوة لان القسى تصنع منه والسهام تصنع من أغصانه وهذا يوحى بايمان الشاعر بالقوة فى تثبيت دعائم الدولة العباسية .

وفى البيت (١٦) استعارة تصريحية حيث تخيل المهدى جبلا ويدل هذا على ثباته وبأسه وشجاعته ، وفى قوله « أجال مجالها » جناس ناقص ، وفى البيت (١٩) استعارة مكنية حيث شبه الحال بالدابة وحذف المشبه به وأثبت لازما من لوازمه وهو الركوب ووراء هذا التصوير بعد يقصده الشاعر وهو تمكن المهدى من الامور المعقدة ، والقدرة على تذليل الصعاب .

وتبدو المقابلة التصويرية فى حديثه عن يدى الخليفة ففضل نوالها للمسلمين ، وللعدو وبالها .

وقوله « غير معاقب » احتراس بدفع أى توهم كاذب يلصق بالمهدى تهمة عقوبة الجناة الذين شملهم عفوه .

(جـ)

تعلمون « ينتقل الشاعر من خطاب الخليفة الى التحدث عنه بأسلوب الغائب ، وهذا الاسلوب يسمى « الالتفات » والشاعر بهذه الوسيلة التعبيرية يدخلنا فى فكرة جديدة وهى مواجهة الخليفة لاعدائه وحينما يخاطب الخليفة بذلك فلن يأتى بجديد فالخليفة يلمس فى نفسه الشجاعة والاقدام ، ولذلك وجه الشاعر حديثه الى من يتشككون فى قدرة الخليفة على ذلك وهم المناوئون له من العلويين وغيرهم من المعارضين .

والاستفهام المنبىء عن التحدى والسخرية فى قوله « هل تعلمون ..؟ يؤكد ما فى نفس الشاعر من تقدير للخليفة ودفاع عن حقه فى الخلافة .

ولجأ إلى اسلوب الكناية فى قوله « مشمرا عن ساقه » ليكشف عن استعداد المهدى وجده فى مقابلة الصعاب .

وأضفى على الخيول سمة انسانية حيث جعلها تصغى الى الخليفة وفى ذلك تشخيص للكائنات غير العاقلة . ووسيلته الخيال السمعى .

ولجأ إلى الخيال البصرى حين تخيل وجه المهدى مصباحا يضىء الطريق أمام جيشه الجرار .

ومقومات البطولة عنده لا تقتصر على الصفات النفسية والمبادىء الواعية . فمن كمال مكونات الشخصية عنده القوة الجسمية وأتى بهذه الصفة فى أسلوب الكناية فقال « قصرت حمائله عليه » كناية عن طول جسمه .

وكثيرا ما يلجأ الشاعر الى المقابلة فى المواقف والمفارقة التصويرية وهو هنا يقابل بين حماية المهدى لبلاد المسلمين واباحته بلاد الاعداء لقومه .

وتبدو المقابلة اللفظية بين « أحمى وأباح » ، « وسهل وجبال » .

(د)

لجأ الشاعر الى اسلوب الاستفهام فى قوله « هل تطمسون ... البيت » بدافع من إنكاره الشديد على خصوم بنى العباس معارضتهم والثورة عليهم . والاستفهام يومىء إلى نبرة التحدى والانكار . والسخرية أيضا . فهو يسخر منهم ويستهزىء بهم حينما يصور إنكارهم للخلافة العباسية بأنهم يضعون أكفهم فوق أعينهم فى وجه النجوم ظنا منهم بأن ذلك يخفى حقيقة النجوم ويحجب ضياءها ، وفى البيت نفسه نرى الاستعارة التصريحية . فالنجوم والأهلة مراد بها بنو العباس . وهذا التصور الجمالى قريب التناول . فقد كان من المألوف ان يشبه الملوك بالنجوم والكواكب . وللنابغة بيت مشهور فى هذا المعنى يقول مادحا النعمان بن المنذر :

فانك شمس والملـــــوك كواكب   اذا طلـعت لم يبد منهـــن كوكب

وفى قوله « أم تجحدون مقاله عن ربكم » استفهام انكارى وهو يطعن عقيدتهم حيث ينكر عليهم عدم اقرارهم وخضوعهم لقول الله عز وجل فى اخر سورة الانفال ((والذين امنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم .. الايه . »

ويحاول الشاعر أن يدلل على صحة دفاعه بالاستناد الى القران الكريم « شهدت من الأنفال آخر آية » .

ويلجأ الى الاستعارة التصريحية فى قوله « فذروا الاسود خوادرا فى غيلها .

وقد تتساءل : لماذا استعار النجوم « للخلفاء فى البيت (٣٢) واستعار لهم الأسود فى هذا البيت (٣٥) وأقول : كل وسيلة فنية وراءها دافع نفسى وفنى . ولكل مقام مقال : انه هناك بمعرض الحديث عن ذات الخلفاء العباسيين وهم ظاهرون كالنجوم ولا ينكرهم إلا من به رمد أو من يتعامى عن الحقيقة . ولكنه عندما يؤكد حقهم فى الخلافة يستعير لهم لفظ الاسود ليحذر خصومهم ويرهبهم حتى يعرفوا أن أصحاب الدعوة سيدافعون عن حقهم دفاع الاسود ولن ينال منهم معتد أو مغير .

وفى قوله « بيد مباركة شكرت نوالها » مجاز مرسل علاقته الآلية - لأن اليد لم تعط النوال ولكنها كانت وسيلة التوصيل فقط .

وختم الشاعر قصيدته بمعنى مشهور يكنى به عند العرب عن حسن الاقتداء وهو « حذو النعل بالنعل » . وهو ختام غير موفق وبخاصة اذا كان الحديث مرتبطا بالحديث عن المصطفى عليه الصلاة والسلام .

((القراءة النقدية))

النص الذى درسناه من الوجهة اللغوية والمعانى العامة والنواحى الجمالية يجدر بنا أن نعرضه على ميزان النقد لنتبين ما فيه من خصائص فنية :

أولا : الافكار :

اشتمل النص على عدة أفكار رئيسية كما مربك وهى :

(أ) وصف الطيف ووصف الناقة	(١ - ١٣)
(ب) الاشادة بمناقب أمير المؤمنينو المهدى .	(١٤ - ٣١)
(جـ) شجاعة المهدى فى مواجهة أعدائه .	(٢٤ - ٣١)
(د) الدفاع عن حق العباسيين فى الخلافة .	(٣٢ - ٣٨)

الشاعر استطاع أن يطور معانيه . فلم يقتصر على الصفات التقليدية فى مدح المهدى مثل الكرم والشجاعة ، والخلق الكريم . وعراقة الاصل ، والعدل فى السياسة . وانما رأيناه يدافع عن حق العباسيين فى الخلافة وكأنه من شعراء المواقف الملتزمين فى العصر الحاضر الذين يدافعون عن مبادئهم التى يعتنقونها .

والذى يلفت النظر فى عرض الشاعر لأفكاره هو أنه فى وصف طيف الحبيبة ووصف الفتية المتعبين استطاع أن يوحى للخليفة بما يرجو من مطالب ومن عطايا ، وأن يصف له حال الطوائف الفقيرة حتى تكون محل رعايته فيغمرهم بفضله واحسانه - وهذا الجزء من القصيدة أكثر فنية وشاعرية من غيره .

ويلاحظ أن الشاعر لا يمتلك القدرة على حسن التخلص من فكرة الى فكرة فبعد ان انتهى من مقدمة القصيدة بدأ فى مدح « المهدى » وكأنه بدأ قصيدة جديدة ولم يحاول أن ينتقل بذكاء من غرض الى غرض .

وللشاعر ميزة فنية وهى تماسك الابيات عنده فى بعض أجزاء القصيدة . واقرأ الجزء الثانى من النص تلمس صحة هذا القول . وأعد قراءة هذه الابيات :

جبل لأمتـــه تلـــوذ بركتـــه	رادى جبـال عدوهـا فأزالهـا
لم تغشها مما تخاف عظيمـــة	إلا أجـال لهـا الأمور مجالهـا
حتـى يفرجهـا أغـر مبـارك	ألفـى أبـاه مفرِّجـاً أمثالهـا

ولاحظ مدى تماسكها . فالضمير فى البيت الثانى يعود على « أمه » فى البيت الاول .

والضمير فى قوله « يفرجها يعود على كلمة « عظيمة » فى البيت الثانى فالشاعر استطاع أن يربط ما بين الأبيات فى المعنى أولا ، وبواسطة الضمائر ثانيا : وكأن الضمائر هى المواد التى يتماسك بها البناء ، ويشد بعضه إلى بعض فى تآلف وانسجام .

وحرص الشاعر على تجويد قصائده جعله يرتب أفكاره فهو بعد أن أشاد بسياسة الخليفة الداخلية . وحسن قيامه بالمسئولية رأيناه يعرض لموقف المهدى من أعدائه ويصف شجاعته فى مواجهتهم .

وبعد عرض هذه الافكار التى تعد تاج فخار للمهدى يقف مدافعا عن حق المهدى وبنى العباس جميعا فى الخلافة ، ويستعمل كل الاسلحة القولية وهو بهذا هيأ الاذهان لقبول دعوته والإصغاء إلى قوله .

ثانيا : التجربة والعاطفة :

هذه التجربة التى عبر عنها الشاعر ليست تجربة وجدانية خالصة وانما يشوبها التكلف الذى يدفع إليه التكسب بالشعر والرغبة فى نوال الممدوح . وهى مع ذلك لا تخلو من صدق فى بعض المقاطع للقصيدة وذلك حين يتحدث عن مسئولية أمير المؤمنين ورعايته للامة وكأنه يرسم دستورا للحكم ويضع نموذجا للقائد العادل الحكيم الشجاع .

والتجربة فى القصيدة تجربة سياسية لأن الشاعر يدافع عن حق العباسيين فى الخلافة ، وقد يبدو هذا غريبا لانه عاصر العهدين الاموى والعباسى ، ووفد على الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦ هـ) مع الحسين بن مطير الاسدى ، وطريح بن اسماعيل الثقفى وعدد من الشعراء .

ولكن الشاعر استطاع أن يندمج فى الدعوة العباسية ألجأه الى ذلك حب الثراء وصار ذا حظوة عند الخلفاء العباسيين : ولشدة تعصبه للعباسيين ، وتعريضه بالعلويين اغتاله بعض الشيعة المتطرفين سنة ١٨٢ .

والعاطفة هنا عاطفة اسلامية حيث نراه يستشهد بآيات القران ويذكر سنن النبى ، وبلاد المسلمين والاقتداء بالنبى ، والحلال والحرام وكلها من أثر هذه العاطفة الاسلامية التى تحلى بها .

والشاعر لم يتأثر بالموجات الثقافية التى غمرت الحياة الثقافية فى العصر العباسى لانه كان يقيم باليمامة ويأتى الى الخليفة مادحا ثم يرجع ، ولذلك ظل محتفظا بالروح العربية التى نشأ فى ظلالها .

ثالثا : أثر البيئة الاسلامية والعربية فى النص

من المسلم به أن الادب صورة للحياة وترجمة لها وأصالة الاديب تكمن فى هذه الظلال التى تنشرها بيئته على أدبه .

وأثر البيئة يتضح فى الالفاظ والعبارات ، والخيال الشعرى ، والمعانى التى يبرز بها الشاعر أفكاره فالشاعر من بيئة عربية إسلامية وأمامَهُ موروثُه من الشعر العربى فى العصر الجاهلى ، وعصر صدر الاسلام والعصر الاموى ، وأمامه أيضا بلاغة القران الكريم وتصويره للشخصية الإسلامية خير تصوير .

ويتضح أثر هذه البيئة فى ألفاظ الشاعر وعباراته :

ففى مقدمة القصيدة تبرز الألفاظ العربية الفخمة التى توحى بجو البادية والتى تظهر فى شعر الكثير من الشعراء مثل الالفاظ الآتية : طرقتك ، سحت ، ديم ، معرسا ، البيد ، أشعث ، هندية ، سواهم ، صفاحها ، حزوثها ، ناجية ، خرجاء ، رئالها .

واستطاع الشاعر أن يستخدم ألفاظه استخداما جيدا حيث وظف لكل فكرة الالفاظ الملائمة لها ، حيث أدت الغرض فى يسر وفى سهولة والالفاظ السابقة تلائم وصف الطيف ووصف الناقة وتتفق مع جو البادية وتمثله أصدق تمثيل .

وقد شاب بعضها الغموض الذى لا مبرر له سوى أن الوزن الشعرى يقتضى ذلك مثل كلمة « معرس » سواهم ، خرجاء ، رعالها ، وحينما يمدح الشاعر أمير المؤمنين يذكر الالفاظ الاسلامية التى تتفق مع الواقع الجديد المعاصر فنجد هذه الالفاظ التى تعرض اضافات البيئة الاسلامية .

أمير المؤمنين ، سنن النبى ، حرامها وحلالها ، بلاد المسلمين جبريل ، الأنفال ، اية ، الخليفة .

وحينما يصف مواجهة المهدى لأعدائه تبرز الفاظ تمثل هذا الجو وتوحى به مثل : الخيل ، قودا ، حمائله ، منصلتا ، العدو ، أدمت ، غاراتهن ، الطراد ، الآل .

ويتضح أثر البيئة فى الخيال : فى وصفه للحبيبة فهى بيضاء ذات دلال ممتزج بالحياء تأسر الفؤاد وتقوده للهو والمسرات وهى صفات محببة فى المرأة العربية طالما تغنى بها كثير من الشعراء فى صور متعددة وأساليب مختلفة .

والتشبيه فى البيت الثالث من وحى البيئة البدوية لأن العزبى الذى يعيش فى الصحراء يعرف دور الماء فى حياة أهل البادية وطالما تقاتلوا وخاضوا الحروب دفاعا عن مواطن الكلأ ومنابع الماء فلا غرابة أن يذكر السحاب والربيع والظلال ويصور الحبيبة نسمة تهب فى أوائل أبريل وذلك لتجسيم احساس العربى تجاه هذه الظواهر الطبيعية وتأكيد ارتباطه بها ارتباط حياة ومصير .

والتشبيه فى البيت الثانى عشر من وحى البيئة فهو يشبه إسراع الناقة بسرعة النعامة التى تهب لانقاذ ولدها من وحشة الظلام . ولا يأتى بهذا التشبيه الا من يشعر برهبة الليل فى الصحراء ، ويحس بلهفة النعامة على ولدها .

وتشبيه الناقة بالقوس والبرج مستمد أيضا من وحى البيئة العربية البدوية .

والاستعارة فى البيت السادس عشر مستمدة أيضا من هذه البيئة حيث تخيل المهدى جبلا يحمى أمته .

والاستعارة فى البيت الخامس والثلاثين من وحى هذه البيئة التى تعرف قدر الشجاعة وتجل الشجعان وتضع نموذجا للشجاعة فى صورة الأسد فالشجاع أسد أو ليث أو ضرغام أو

ضيغم أو رئبال وكلها من أسماء الأسد وصفاته .

وقد تبدو الصور السابقة تقليدية لم يبتكرها الشاعر إذ سبقه اليها الشعراء ولكنها برغم هذا تمثل البيئة أصدق تمثيل وخصوصا أنها مرتبطة بالإشادة بالبطولة الإسلامية التى تسعى إلى انصاف المظلوم ، ورفع الضيم عن الناس ، ودحض المعتدين .

وأما أثر البيئة فى المعانى فقد اتضح عند تحليل الافكار وعرض المعانى العامة للأبيات .

رابعا : الموسيقى فى القصيدة وارتباطها بالتجربة والروح الاسلامية :

القصيدة من بحر الكامل : ووحداته الاصلية : متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن

وموسيقى هذا البحر تجمع بين الفخامة والرقة . وهذا ما حدث فى هذا النص . فالشاعر جمع بين فخامة المعنى ورقة اللفظ . وتلاحظ أنه لم يأت بحكم كثيرة بل تكاد تنعدم الحكمة فى هذا النص وذلك يرجع الى شيئين أولهما أن الشاعر لم يتأثر بالمذاهب الفلسفية كالمتنبى وأبى العلاء وثانيهما أن بحر الكامل فى رأى بعض النقاد لا يصلح وعاءا للحكمة والفلسفة .

وأما القافية فتتمثل فى الحروف الاربعة الاخيرة « خيالها . (ألف المد واللام والهاء والالف) .

واستخدام الشاعر لحرفى المد « الالفين » فى القافية يدل على الغزارة الموسيقية ونبرة الفخر العالية ، والتعبير عن الفرح والزهو وهو أمام الخليفة .

والالف لها نوع من القداسة فى العربية فهى أول الحروف وأعظم الحروف . والالف تشير الى الله الذى ألف بين الاشياء وانفرد عن الاشياء .

واذا تتبعت كلمات القصيدة وبخاصة التى تسبق القافية ستجد حرف الالف ملازما لها مما يوحى بأن الشاعر كان يتقن فن الانشاد ، وهو بهذا التصرف الموسيقى والأداء الصوتى يبرز القيم الصوتية فى الشعر العربى ويؤكد أن سماعه كان له دور خطير فى الحكم عليه وأن فن الانشاد كان ملتصقا بالشعر حيث كان يلقى أمام الخلفاء فيعجبون به أيما اعجاب .

وبعد :

فهل تعجب اذا عرفت أن المهدى زحف من صدر مصلا حتى صار على البساط اعجابا بهذه القصيدة حين سمعها من مروان بن أبى حفصة ثم سأله : كم هى ؟ فقال مروان مائة بيت فأمر له بمائة ألف درهم . فكانت أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس ؟؟.

يقول ابن المعتز : وأشعار مروان كثيرة جدًا ، ولو أوردنا عيون شعره لطال بها الكتاب . فليس له إلا كل عين .

عاطـفة الصـداقة فى منظـور الاسـلام
(فى وداع صـديق)

لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى (١٩٠ - ٢٣١ هـ) وهو يودع صديقه «على بن الجهم» .

الشاعر وفنه :

(مولده ونسبه) : هو حبيب بن أوس الطائى - ولد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها الى طبرية واختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها فقيل فى سنة ١٧٢ هـ وقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٨ هـ وينسب إليه أنه قال عن نفسه : ولدت سنة ١٩٠ هـ وهو عربى الأصل برغم تضارب الآراء فى نسبه فهو من بنى عدى بن عمرو بن الغوث من طئ . وقيل كان أبوه نصرانيا من أهل جاسم واسمه تدوس فصيره أبو تمام أوسا . وظن مرجليوث (أحد المستشرقين) أن تدوس محرف عن «تيودوس» وهى كلمة يونانية وتوهم د/طه حسين أنه يونانى الأصل نظرا لهذا الاسم .

(نشأته) : وكما تضاربت الآراء فى مولده وفى نسبه تضاربت فى نشأته .

فقيل إنه نشأ بمصر يسقى الناس فى مسجدها الكبير . واكثر المؤرخين له يقولون انه نشأ بدمشق وان أباه كان عطارا فيها والحقه بحائك كى يحسن حياكة الثياب ، وأخذ يختلف منذ نعومة أظفاره الى حلقات المساجد ينهل مما كان يجرى فيها من جداول الشعر والثقافة وسرعان ماتدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه الى بعض اليمنيين والطائيين فى بلدته وفى حمص مثل نوح بن عمر وبنى عبد الكريم الطائيين .

وانتقل الى مصر فمدح بها عياش بن لهيعة الخضرمى الذى كان يتولى أحيانا شرطة مصر وخراجها ويقول فى إحدى مدائحه .

وإنــى بمصر غايتــى وقرابتــى بهـا وبنـو الآباء فيهـا بنـو أبـى

واقام عنده مدة قيل إنها سنة ٢١١ هـ إلى ٢١٤ هـ وكان أبو تماما يعتقد أن «عياش» يمنى مثله وكان فى مدائحه ينوه بحرمته منه وفى البيت السابق مايشير إلى ذلك .

ولم يجد عند عياش مايؤمله من مكافآت سخية فهجاه بعد موته ، ثم سار إلى دمشق فمدح بها أبا المغيث موسى ابن ابراهيم الرفقى ولكن خاب ظنه ورجع بخفى حنين فهجاه ، وسار إلى المأمون فى بلاد الشام وأنشا قصيدتين فى مدحه ولكن حيل بينه وبين المأمون ولم يستطع أن يسمعه صوته الشعرى .

فذهب إلى الموصل وتنقل بينه وبين وطنه ، وزار أرمينية ، ويمدح واليها خالد بن يزيد الشيبانى فأجزل له العطاء .

وبعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ ، ذهب إلى بغداد وتتوثق علاقته هناك بالمعتصم ويصبح من أقرب المقربين اليه ، ويصبح أقدر شاعر على تمثل سيرة المعتصم وبطولاته ثم صوغها فى شعر رائع فيه غموض الفن ، وثقافة الإنسان الطموح ، وعزة العربى الجسور .

وتوثقت علاقته بكبار الدولة فى ذلك الوقت من مثل محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق وأحمد ابن أبى داود القاضى وغيرهما من كبار القواد والعمال .

ونال أبو تمام ثقة الواثق بعد المعتصم .

ورحل إلى خراسان ليمدح عبد الله بن طاهر ، ومربهمذان فى أثناء رجوعه من خراسان فأكرمه أبو الوفاء بن سلمة ، وحبسه الثلج هناك مدة طويلة فانكب على خزانة كتبه ولم يلبث أن فكر فى تأليف مجاميع الشعر فألف خمسة كتب أهمها : «ديوان الحماسة» وعاد إلى بغداد وتتوثق الصلة بينه وبين «الحسن بن وهب» كاتب ابن الزيات فيوليه على بريد الموصل . وعاجلته المنية فلبى نداء ربه سريعا فى سنة ٢٣١ هـ .

ثقافته وفنه : وعى أبو تمام وعيا دقيقا صورة الشعر العربى بجميع خطوطها وألوانها وكل مايجرى فيها من أضواء وظلال وانتحى ناحية مسلم بن الوليد فى تصنيعه واستخدامه البديع وكان يميل إلى التضاد والمفارقات التصويرية والحياة فى فنه تتمثل فى الصراع بين المتناقضات وكما يقولون «الضد يظهر حسنه الضد» وآمن أبو تمام بهذه النظرية وجاء شعره ترجمة لها فهو يقابل بين الحروف وبين الألفاظ وبين الجمل وبين الألوان وبين الحركات وبين المواقف ، إلى درجة تعقد فيها فهم شعره .

وقال له رجل ذات يوم : ياأبا تمام ، لم لاتقول من الشعر مايعرف فقال له : وأنت لم لاتعرف من الشعر مايقال ؟ فأفحمه .

وهذا التصرف الشعرى والعمق الفكرى فى فن أبى تمام لم ينشأ من فراغ وانما وراءه ثقافة عميقة تمثلت فى معرفته بالفلسفة وعلم الكلام وأصوله والثقافة التاريخية واللغوية والإسلامية والإطلاع على الفرق المختلفة التى ظهرت فى مذهب الشيعة ، ومعرفته ببعض الآراء الفقهية ، والمصطلحات النحوية والصرفية .

والأمثلة على ذلك كثيرة متناثرة فى ديوانه وستعرف من النص الذى سنتناوله بعض الشواهد على ذلك ومنها على سبيل المثال قوله :

فلو صح قول الجعفرية فى الذى   تنص من الالهام خلناك ملهمـــا

والجعفرية قوم من الشيعة يغلون فى جعفر بن محمد ويزعمون أنه يلهم الأشياء ويعلمها وكذلك يعتقدون فى أئمتهم الالهام وأنهم يطلعون على الغيب .

وعلى بن الجهم القرشى كان من أقرب الأصدقاء الى نفس أبى تمام وقد كان ابن الجهم شاعرا جيد عاش حياته يعانى من الأحداث وتقلد مناصب كثيرة ومنها الوزارة ولقد كان علامة ثقافية فى عصره وقدره الفيلسوف العربى والاسلامى «الكندى» فأهدى له رسالة فى وحدانية الله .

جو النص : يدور النص حول مشاعر أبى تمام تجاه صديقه عى ـجهم وهو يتأهب للسفر ، وقد عد «الخطيب التبريزى» هذا النص مديحا لأبى الجهم وهو ليس مدحا يقصد به الى التكسب وانما هو موقف انسانى دفعه اليه الوفاء لصديقه المسافر . وفجر هذا الموقف فى نفسه مشاعر الأسى والشعور بالفقد والبعد .. وذلك الاحساس من أبى تمام لا يبعد به عن الصدق لأنه وهو الشاعر المفكر الحكيم المتزن العاطفة حين يأسى لفراق الصديق فأنما يدل هذا على صدقه البالغ .

وعلى غير عادة الشعراء رأينا أبا تمام يجل الصداقة ويعطيها قدرها أما الكثيرون غيره فيتوجسون خيفة من الصديق ويفقدون الثقة بالناس وقالوا عن المستحيلات الثلاثة انها «الغول والعنقاء والخل الوفى» وقال عمر الخيام :

عامل كأهليك الغـــريب الوفـــى   واحذر من الأهل الـــذى لايفـــى

وقال أبو حيان التوحيدى فى كتابه «الصداقة والصديق» : لقد صحبت الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لى ذنبا ولاستروا لى عيبا ، ولاحفظوا لى غيبا ، ولاأقالوا لى عثرة ، ولارحموا لى عبرة ، ولاقبلوا لى معذرة ، ولافكونى من أسر ، ولاجبروا لى من كسر ، ولابذلوا لى من نصر .

واذا كانت النظرة والى الصديق اتسمت بالحذر وفقد الثقة فى قول أحد الشعراء :

احـــذر عـــدوك مـــره   واحـــذر صديـــقك ألـــف مره
فربمـــا علـــم الصديـــق   فكـــان أعلـــم بالـــمضره

فأن أبا تمام أعاد الثقة فى الصديق واضاء جوانبه التى تكدس عليها ظلام الأوهام والظنون .

(النـــص)

- أ -

هى فرقة من صاحب لك ماجد	فغدا إذا به كل دمع جامد
فافزع الى ذخر الشئون وغربه	فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد
واذا فقدت أخا ولم تفقد له	دمعا ولاصبرا فلست بفاقد
أعلى يا ابن الجهم إنك دفت لى	سما وخمرا فى الزلال البارد
لاتَبْعَدَنْ أبدا ولاتبعُدْ فما	أخلاقك الخضر الربا بأباعد

معانى المفردات والتراكيب :

ماجد : كريم شريف والمجد : العز والشرف

اذابة : إسالة لان ذاب بمعنى سال ويتعدى بالهمزة والتضعيف

فزع : خاف - وفزعت اليه اى لجأت وهو مفزع اى ملجأ .

الشئون : المراد بها الدموع ومفردها الشأن :

ذخرته : اعددته لوقت الحاجة وجمع ذخر أذخار

غربة : جدته ، الجهد بفتح الجيم وضمها الطاقة وبالفتح فقط المشقة

دفت : أذبت ، الزلال : العذب .

بعد يبعد من بعد المكان : بضم العين فى الماضى وفى المضارع واما البعد بفتح الباء والعين فمعناه الهلاك والفعل منه بعد يبعد .

إن يكد مطرف الاخاء فاننا	نغدو ونسرى فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا	عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا	أدب أقمناه مقام الوالد

المطرف : المستحدث والطريف ضد التالد وهو المال القديم الاصلى ، نغدو .
ونسرى : صباحا ومساءا والمعنى إن لم يثمر حديث الاخاء فان اخائنا قديم مثمر .
الوصال : ضد الهجر والتباعد ، والتواصل ضد التصارم ، وتوصل اليه أى تلطف فى الوصول اليه .
تحدر : تنزل والحدور بفتح الهاء الهبوط وهو المكان الذى تنحدر منه ، وحدر فى قرائته : أسرع فيها .
يؤلف : يوحد ، أدب : المراد هنا اتفاقهما فى قول الشعر .

لو كنت طرفا كنت غير مدافع — للأشقر الجعدىّ أو للزائد
أو قدمتك السن خلت بأنه — من لفظك اشتقت بلاغه خالد
أو كنت يوما بالنجوم مصدقا — لزعمت أنك أنت بكر عطارد
صعب فان سومحت كنت مسامحا — سلسا جريرك فى يمين القائد
ألبست فوق بياض مجدك نعمة — بيضاء حلت فى سواد الحاسد

الطرف : بكسر الطاء . الكريم من الخيل وقيل انه نعت للذكور خاصة اندفع الفرس اى اسرع فى سيره ، وتدافع القوم فى الحرب أى دفع بعضهم بعضا .

الاشقر الجعدى : فرس كان يعرف بأشقر مروان وهو مروان بن محمد ابن الحكم بن أبى العاص وانما أراد أن ينسب الفرس اليه ، فلم يستقم له الشعر فجعل الاشقر جعديا وكان مروان يقال له مروان الجعدى لان مؤدبه أى معلمه كان يسمى الجعد بن درهم . فقتله يوم عيد فقيل له مروان الجعدى ويقال أن أشقر كان من نسل الزائد ، وكان الزائد فرسا عند هشام بن عبد الملك وأسن الزائد حتى بان فيه العجز والتقصير .

خالد : هو خالد بن صفوان التميمى وقد كان يوصف بالبلاغة وحضر بين يدى أبى العباس السفاح .

بكر الرجال : أول أولادهم ويكون مفضلا على من يأتى بعده عند العرب .

عطارد : نجم فى السماء والمنجمون يزعمون أن عطارد يتولى الشعراء والكتاب أى يوحى اليهم [illegible] من هؤلاء عطارد كان بليغا .

(١) سلس : سهل لين منقاد ، الجرير : حبل يضفر من جلد مدبوغ ويكون فى عنق البعير ، وجعله سلسا لانه أملس لا عقد فيه ، وذلك أنهم يقولون هو مضروس الجرير اذا كانت فيه كالاضراس من العقد ، وكأنهم يستعملون ذلك ارادة لتذليل البعير فيقولون انقاد فلان كأنه بعير مضروس الجرير .

(٢) سواد الحاسد : يجوز أن يكون المعنى : حلت فى شخص الحاسد لان سواد كل شىء شخصه أى أنها تتلفه اذ صارت غصة فى صدره .

ويجوز أن يكون أراد سويداء قلبه والمعنى أن ذلك صار كمدا فى قلبه وللبيت روايتان أخريان هما تسرع فى يمين الحاسد تسرع فى سواد الحارس .

ومـــودة لازهـــــدت فى راغب　　يومـا ولاهـى رغبت فى زاهـــد
غنـــاء ليس بمنكـــر أن يغتـــدى　　فى روضها الراعـى امـام الرائـد
مأدعـــى لك جانبـــا من سؤدد　　الا وانت عليـــه أعـــدل شاهـــد

---

(٣) زهد فى السىء　يعنى تركه وأعرض عنه ، وزهدت بمعنى كرهت وجعلتك تعرض عن الذى تريده .

(٤) غناء : الروضة الكثيرة العشب الخصبة النضرة ، وواد أغن أى العشب والغنة صوت فى الخيشوم والمراد أن مودتك خصبة .

لاشتهار أمرها – أن يتقدم الراعى على الرائد فيها لان الرائد هو الذى يتقدم القوم فيطلب الماء والمرعى لهم ، وانما يحتاج اليه اذا التبس الامر فى ذلك فيقول : مودتك أشهر من أن يكون الراعى لروضتها يحتاج الى رائد أى انك تسرع التفضل على من يودك ، فمودتك مثل الروضة يرعاها الراعى قبل أن يرودها الرائد ، أى أنت قريب ممن يريدك .

(٥) السؤد : المجد والشرف وهو مأخوذ من ساد يسود سيادة .

(أ)

القراءة الموضوعية :

يخاطب الشاعر نفسه حتى يواسيها لأنه لا يجد من يعزيه فى هذا الموقف فيؤكد فى انفعال محتدم أن فراق صاحبه الشريف الكريم أصبح محققا ولذلك سيذوب الدمع الذى كان جامدا فمن زمن بعيد والدموع مخبأة وكأنها تكثر من رصيدها لذلك اليوم حتى تنفس عنه بتأثيرها الحاد القاطع للأحزان كالسيف وهى تبعد المشقة عن الانسان وتريحه .

وهذا الموقف الأسيان يفجر الحكمة من وجدان الشاعر فيقول : اذا بليت بفقد عزيز عليك وواستك الدموع وتملكت الصبر فإنك لم تفقد أخاك وبعد هذه المناجاة النفسية التى تقدر حق الصداقة ينادى فى لهفة وأسى صديقه على بن الجهم معاتبا وراسما صورة لهذا العتاب الحزين الذى دفع إليه الحب قائلا إنك بعشرتك الندية وصداقتك الحميمة ثم ابتعادك فجأة كنت كمن يقدم كأسا مخلوطا بالسم فكيف أحتمل هذا الشراب إنك خلطت مودتك وقربك ببعدك وفراقك فكأنك جمعت لى بين ما يحيينى ويميتنى .

ويستعيد الشاعر توازنه بعد موجة الانفعال العارمة فيقول له وينفى عند البعد والبعد أى الفراق والهلاك ويجسم أخلاقه فهى تنشر عطرها على الناس ويفىء الأصدقاء إلى ظلها لأنها سرت فى سلوكهم وأثرت فى أخلاقهم فهى غير بعيدة برغم بعد صاحبها .

(ب)

إن اخاءنا قديم ويستمر مادامت الحياة لأنه غير مستحدث ولا متنافر فمودتنا صافية . نابعة من صدر واحد هو الصداقة والاخلاص فيها واذا كان النسب لم يجمع بيننا فان لنا أبا حميما وحد فيما بيننا وهو الأدب وأنت تنتسب إلى أصل كريم وأدبك ذو غاية كريمة وأنت لا تنافس فى نسبك ولا تسبق إلى غاياتك ، ولو كان هذا المنافس الأشقر فرس مروان أو الزائد فرس هشام بن عبد الملك .

ولو أن الزمن تقدم بك لحسبت أن العربى الفصيح خالد بن صفوان التميمى استمد منك بلاغته لما تتمتع به من موهبة نادرة وفطرة سليمة ولو كنت سن يعتقدون فى علم التنجيم ويصدقون كلام المنجمين فى هذا المعتقد لقلت انك اول مَنْ ألهمه نجمُ الادب أسرار الكلم والقى فى وجدانه لؤلؤة الابداع الشعرى فتفجر منك الشعر عذبا ، سلسا صافيا عميقا فيه صدق الاحساس ونبل العاطفة وروعة الأداء .

(جـ)

بعد الصورة التى رسمها الشاعر لصدقه موشاة بأمنياته وخيالاته تجاهه بدأ يحلل شخصية ابن الجهم ويعدد صفاته بعيدا عن المبالغة والافراط وبعيدا عن الكذب الشعرى وكأنه يختط طريقا جديدا مغايرا لطريف الشعراء فى المدح ومصححا للقيم النقدية التى تقول : إن أعذب الشعر أكذبة ، إنه لا يمدح صديقه لا بل يكشف عن كنوز هذا الصديق فهو قوى فى الحق لكنه يقابل اللين باللين .. لا ينفر ولا يجمح وذلك مرده إلى إستواء شخصيته وخلوها من العقد التى رمز اليها فى قوله : سلسا جريرك .

وهذا الاستواء فى الشخصية رمز له بالبياض . بياض المجد وبياض النعمة .. وقد أصابت هذه السمات الرائعة قلوب الحساد وصارت كمدا فى قلوبهم وغصة فى صدورهم ، ويخاطبه والأمر على النقيض مع من يغبطونك فهم يودونك كأنك أنت المودة وهذه الميزة لا تزهدك فى مودتهم فمودتك روضة خصبة نضرة كأخلاقك الخضر تزرع البهجة فى القلوب ولا تحتاج إلى مرشد لانها واضحة للجميع وهذه الصفات ليست إضافة قولية إليك يسوقها التصنع والرياء . وإنما هى من صميم كيانك فأنت أعدل شاهد على واقعية هذه السمات والتصرفات .

(أ)

القراءة الجمالية :

لجأ الشاعر الى أسلوب التجريد فى قوله : صاحب لك «فأفزع» اذا فقدت فلست .

ووراء هذه القيمة البلاغية دافع نفسى فهو فى قمة الحزكن لايستطيع التحكم فى مشاعره وهو بحاجة الى صديق يقف معه فى هذه الشدة والصديق كما يقولون يعرف وقت الشدة .

وجو الرحلة يبدو مسيطرا على ألفاظ الشاعر فالسفر يوحى بالفراق ثم الدموع ، ثم الصبر ، والشاعر يأتى بالفرقة قبل السفر لأنه أصبح محققا فى نية ابن الجهم وارادته .

ويبرر دموعه أن يعاب عليه هذا الموقف لأن الرجال من شأنهم التجلد «البيت الثالث» والشاعر يلجأ الى الجناس فى : ماجد ، جامد ، تَبعَد ، تَبْعُد ، ويلجأ الى الطباق فى إذابة ، سما ، خمرا .

وهو له مذهب مستقبل بخصائصه العقلية والزخرفية ، فالطباق عنده يستمده من احتكامه إلى قانونى التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط وله فلسفة خاصة فى هذا الاتجاه وهى أن الحياة تجمع بين النقيضين ولذلك قال : سما وخمرا ولم يقل سما أو خمرا لأن الواو لمطلق الجمع أما أو فهى للاختيار وعلى ذلك يؤمن الشاعر بأن الحياة صراع وجدال بين كل شئ فيها .

وأما الجناس فدافعه أن الحياة غير منفصلة فهى قائمة أيضا على التشابه والتمازج .

والبيت الرابع فيه نداء يوحى باللهفة والأبيات الثلاثة الأولى كانت مقدمة بين يدى صديقه حتى يرق له ويلغى فكرة السفر والنداء بالهمزة وليس بالياء يوحى برغبة الشاعر فى عدم فراق صاحبه .

والبيت الخامس فيه دعاء بعدم الفراق وعدم الهلاك ووراءه عاطفة صادقة وأسى عميق وفى البيت استعادة مكنية فى قوله : أخلاقك الخضر الربا فهى فى حضور دائم تنشر أريجها فى النفوس .

(ب)

نلاحظ فى هذه الأبيات أن الشاعر استعمل الفعل المضارع كثيرا يكد ، نغدو ، نسرى ، تحدر ، يفترق ، يؤلف وذلك التركيز على الفعل المضارع يتصل بنفسية الشاعر وتجربته ، فنفسيته قلقة لسفر صديقه والتجربة وداع وسفر والمشاعر مهتزة وكلها توحنى بالحركة والتدفق والاستمرار الذى يفيده الفعل المضارع .

وهذه الأبيات تعد سفرا داخليا فى أخلاق هذا الصديق المفارق وهى تفسير لأخلاقه التى جسمها الشاعر فى البيت الخامس أخلاقك الخضر الربا حيث جعلها فى حضور دائم تشع بالخضرة والنماء وتحبب الناس فى الحياة .

وجواب الشرط فى الأبيات (٦ ، ٧ ، ٨) ترجمة لحضور هذه الأخلاق فالاخاء التالد الدائم مادام العمر بينهما ، والمودة ذات المنبع الواحد والشعر الذى فاق صلة الرحم بينهما كلها مقومات لأخلاقه الكريمة .

وقد اعتمد الشاعر فى صياغته على صيغة أسلوب الشرط والجواب ليبتعد عن السرد الجاف أو التقريرية المباشرة . فالشرط فيه تشويق واثارة للخيال لمعرفة مابعده حيث يملأ الجواب الفراغ الذى يسبح فيه خيال الشاعر والمتلقى .

والشرط والجواب من صميم فلسفة أبى تمام اللغوية واعتماده فى الصياغة على قانون التضاد والقياس وسرده إلى نزعته العقلية وهى تتمثل فى التجارب العاطفية المحتدمة مثل هذه التجربة ويظهر أيضا فى التضاد بين هذه الألفاظ نغدو ونسرى «مطرف وتالد» يفترق ويؤلف

والتضاد فى نغدو ونسرى وراء معنى غير مفهومة البلاغى فأنه يومئ إلى استمرار الاخاء طيلة الزمن فالغدو مرادف لوحدة زمنية هى الصباح والمراد النهار والاسراء مرادف لليل - ويعنى هذا أن الزمن لايخرج عن هاتين الوحدتين الزمنيتين فأنظركم وراء الكلمتين من معان رائعة .

ويلجأ الشاعر إلى الاستعارات المكنية فى مثل قوله : ماء الوصال يؤلف بيننا أدب ،

ويتخيّل صاحبه حصانا كريما وهذا التخيل له مايبرره فالعرب يستخدمون الطبيعة الحية فى تشبياتهم فيشبهون الشجاع بالأسد والماكر بالتعلب ، والجبان بالقرد ، والوفى بالكلب وليس غريبا أن يتخيل أبو تمام صديقه فرسا فالفرس ألصق بحياة العرب من أى حيوان آخر فى السلم وفى الحرب ، وقد بدأ تكلف الشاعر فى وصف الفرس بالجعدى وقد الجأه الى هذا الوزن الشعرى .

وفى تخيله للصورة المثلى التى يرسمها لصاحبه لجأ الى الطبيعة الحية فى المقارنة بين صاحبه وبين الفرس .

ولجأ الى الطبيعة البشرية فى وصف بلاغته حين جعله مصدرا لبلاغة خالد .

ولجأ الى الطبيعة الجامدة : الأسطورية حين تخيله الابن البكر للنجم عطارد مصدر الوحى للشعراء .

(جـ)

يصور الشاعر شخصية صديقه ، فيأتى بالاستعارة المكنية فى قوله «سلسا جريرك فى يمين القائد» ووراء هذه الاستعارة فكرةُ أراد الشاعر ترسيخها وهى استواء شخصيته فهو صعب ساس وهذا الجمع بين الأضداد من سمات أبى تمام فقد تعمق فى هذا مذاهب المتكلمين وفى الفلسفة والمنطق تعمقا جعله ينشر فى معانيه الأضداد المتنافرة نشرا يدخل البهجة على النفس بما يصور من تعانقها فى الحياة تصويرا يدل على عمق غوره فى الإحساس بحقائق الكون ، وبترابط جواهرها ، حتى الجواهر التى تبدو متضادة فان بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقى التقاء وثيقا . والصورة الحسية عند تجسم الفكرة المجردة . فالبياض والسواد نقيضان يجتمعان فى الحياء فالبياض يرمز للصفاء والسواد يرمز للقتامة وليس معنى هذا أن الشاعر يكره اللون الأسود وانما هو وغيره طالما تغنوا بسواد الشعر وسواد العين وسواد المسك .

واللون الأخضر فى البيت الخامس عشر يتآزر مع اللون الأخضر فى البيت الخامس وكأن الأبيات المحصورة بينهما طريق ممدود بين روضتين وهذا الطريق مفعم بالمتناقضات المتمثلة فى الأبيض والاسود فى الجواب والشرط فى الرغبة والزهد فى الغبطة والحسد ولكنها فى النهاية تعود للبدء فقد بدأت خضراء وعادت خضراء وهذا يدل على احساسه العميق بتشابك حقائق الكون .

والتجسيم كما قلت من أدوات الشاعر الفنية . فالنعمة قيمة معنوية جسدها الشاعر فى قوله «أليست نعمة» ووصفها بالبياض امعانا فى التجسيم وبث الحركة فى المجردات .

ويجسم المودة حين يصفها بأنها «غناء» وفى ذلك ايحاء بأن المودة مصدر الظلال والنمر والموسيقى التى تنتظم حياة الكون وتسعد الانسان .

والصور عند الشاعر قد تمتد ، فالمودة أصبحت روضة فسيحة فيها السياحة مباحة لكل راغب ولايحتاج إلى مرشد ، ويضىء هذا التصور عالم صاحبه المفعم بالحلم والأخلاق التى أثرت فيمن عرفها .

وما أروع التقسيم اللفظى فى قوله : «زهدت فى راغب» رغبت فى زاهد إنه يمثل حركة التدافع فى الحياة ويصور إقبال الناس على صديقه واحتفاءه بهم أدق تصوير .

القراءة النقدية :

الأفكار :

يدور هذا النص حول موضوع واحد وهو الوداع والسفر ، وفكرة دوران القصيدة حول موضوع واحد فى الشعر العربى القديم لاتراها إلا قليلا . وهذه من ميزات أبى تمام الذى حقق فى هذه القصيدة مانسميه الان بالوحدة الموضوعية .

والشاعر استطاع أن يقسم موضوعه إلى عدة أفكار كل منها يؤدى إلى الاخر فى تسلسل واتساق .

ففى الفكرة الأولى من(١ - ٥) يصور وقع السفر على نفسه وبما أحدثه من حالة انعدام الوزن حتى أصبح لايسيطر على مشاعره . فتخيل من يواسيه فى هذا الموقف المأساوى الرهيب . وحين يهدأ انفعاله نراه يفلسف الموقف فى الفكرة الثانية من (٦ - ١٠) حيث يجابه الواقع المؤلم ويتحداه ويرتفع فوق الألم .

ثم نراه بعد ذلك يصل مابين الفكرة الثانية والثالثة فى ذكاء بارع وحسن تخلص (١٢ - ١٦) حيث يتعمق شخصية ذلك الصديق ، ويدلل على ماقاله فى الفكرة السابقة فصاحبه سيظل فى قلوب الناس لأنه غزا حياتهم بالخير والمودة .

فالقصيدة مترابطة الأفكار متناسقة الأجزاء ولايمنع هذا الترابط من كون البيت هو وحدة القصيدة فلا تعارض بينها وهذه ميزة فى الشعر القديم الناضج يعطيك المعنى المستقل فى بيت واحد ، وهذا البيت يعد لؤلؤة فى سلك منتظم من المعانى ومعجم الشاعر فى هذا النص الذى بنى به أفكاره مستمد من جو الصداقة والسفر .

* وتأمل القصيدة وأعد قراءتها تجد هذه الألفاظ الموحية بالشجن فى لحظة الوداع والسفر «فرقة» دمع جامد ، دمع وصبر ، تفقد فاقد لاتبعدن ، لاتبعد .

وفى الفكرة الثانية والثالثة تضوع الكلمات بعمق الصداقة مثل : مسامحا ، سلسا ، رغبت ، غناء ، الراعى ، الرائد ، الإخاء ، الوصال .

القيم الاسلامية والعربية فى النص :

الصداقة شعاع يربط مابين القلوب والنفوس فيشيع فيها الأمان والدفء كما تشيع الشمس حرارتها فى الكون . والشاعر ابن البيئة العربية والاسلامية التى تعرف للصداقة قدرها . والصداقة فى الاسلام تقوم على غير غرض ، وقديما قال الشاعر العربى الإسلامى :

إن الصديق الحق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

وبعض الكتب تخصص فى معالجة هذه القيمة الاجتماعية الرائدة مثل كتاب «الصداقة والصديق» لأبى حيان التوحيدى .

والصداقة من «الصدق» ولذلك لقب رسولنا الكريم عليه السلام أبا بكر الصديق لصدقه وتصديقه ووصف المكيون الرسول الكريم «بالصادق الأمين» وقال عنه رواه الحديث «الصادق المصدوق» والكلام فى هذا الباب متسع المدى .

وفى هذا النص نرى الشاعر حزينا لكن حزنه لايفقده صوابه ، بل يكتفى بالدمع ، وتتمخض تجربته عن هذه الحكمة «فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد» .

ويعد الصبر والدمع عوضاً عن الحبيب الراحل كما فى هذا البيت الذى يجرى مجرى الحكمة :

وإذا فقدت أخا ولم تفقد له   دمعا وصبرا فلست بفاقد

ألا يتفق هذا الشعر مع منهج الاسلام فى مثل هذه المواقف ؟ أليست هذه المشاعر مستوحاه من الفلسفة الإسلامية فى الحياة ومن موقف المصطفى عليه السلام فى وداع ابراهيم ويومها قال :

«ان العين لتدمع ، وان القلب ليجزع وانا لفراقك يابراهيم لمحزونون» أليست الأخلاق الحسنة من صميم المنهج الاسلامى فى التعامل واستمرار حركة الحياة .

لاتبْعَــدَن ابــدا ولاتبعــد فمــا　　أخلاقك الـخضر الربــا بأباعــد

والاخوة توطد الصداقة يقول الحق تبارك وتعالى :

(إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم)

والاخاء بين الصديقين فى هذا النص قديم ثابت لايتغير تحت أى ظروف وأى ملابسات .

والأخوة ليست أخوة النسب ولكنها أخوة الايمان والمبادىء والاتفاق فى المشاعر والأهداف والأدب بين الصديقين فى هذا النص وهذا الأدب الذى يشيد بالبطولة والأخلاق حل منهما محل الوالد ولاينفصل عن التصور الاسلامى للعلاقات الاجتماعية السليمة .

ويربى الاسلام أبناءه على الكياسة والفطنة والعزة والتسامح (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف) .

«حديث شريف»

«ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور»

«قرآن كريم»

«فمن عفا وأصلح فأجره على الله» .

«قرآن كريم»

أقرأ البيت الآتى ووازن بينه وبين ماتهدف اليه النصوص السابقة :

صعب فان سومحت كنت مسامحا　　سلسا جريرك فى يمين القائــد

والحسد قيمة بغيضة يمقتها الاسلام .. وأمر الله رسوله الكريم أن يستعيذ برب الفلق من شر حاسد إذا حسد .

وفى تقويم الشاعر لأخلاق صاحبه أومأ الى أن رقة طبعه ونعمته البيضاء قد وأدت حسد الحاسدين .

والمودة التى جسمها الشاعر وجعلها روضة يتمتع فيها الجميع بسياحة شائقة .

- أليست تمت بنسب إلى الحب المجرد الذى ينادى به الاسلام وهو أن يحب المرء لا يحبه الا الله . ؟

- شهادة الانسان على نفسه وشجاعته فى تقويم صفاته . أليست من صميم المنهج

الاسلامى الذى ينادى « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » ، « وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم » . ؟

والروعة فى هذه المضامين الإسلامية تتمثل فى أن الشاعر لم يأت بها فى صورة حكم جافة ، أو اسلوب تقرير وعملى مباشر ولكنها التحمت بتجربته التحاما فنيا رائعا وتشربتها التجربة كما تتشرب الارض الظمأى ماء الحياة .

وللبيئة الاسلامية والعربية : أثرها فى تشكيل مخيلة الشاعر وإبراز صوره الفنية المتعددة فتصويره للأخلاق بأنها « خضر الربا » يومىء إلى تقدير الانسان العربى للون الاخضر الذى يكسوا الزروع والظلال والثمار لأن حياته مجدبة والصحراء شاسعة . وكأنه يريد أن يقول إن الناس يعانون من جدب الاخلاق وانت الواحة التى تمدهم بالصفات الخصبة والأعمال الجليلة ، والافكار السائبة ، والاخلاق الندية .

وحين يكنى عن تآلفهما واتحاد قلبيهما بقوله : « فماؤنا عذب تحدر من عام واحد » فانما يشير الى قيمة السحاب فى حياة العربى الذى ينتظر الغيث ـ فالغمام فى رؤيته لا يحجب المرئيات ولا ينشر الظلام لكن يموج بالغيث والرزق الوفير .

والشاعر يمتلك جسارة الفنان فهو لا يغوص فى المعميات ، ويأتى ما يجهله الناس ولكن يشكل خياله من اللوحات التى يعايشها الناس فالاشقر الجعدى ليس اسطورة ولكنه من خيول المؤمنين التى جاهدت فى سبيل الحق :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » قرآن كريم » وشجاعة الصديق عندما تقترن بالخيول فى ذلك الزمن فانما تقترن بالعزة الاسلامية والعربية وتشارك فى حركة الحياة وايجابيتها وتقدمها .

وخالد بن صفوان التميمى من فصحاء العرب المسلمين ، وقد أراد الشاعر أن يؤكد فصاحة صاحبه وبلاغته فقال لو قدمتك السن لاخذ عنك خالد بلاغته .

وفى هذا اعتراف ببلاغة خالد وابن الجهم فى وقت واحد وذلك يشير الى اعتزازه بالعلماء المسلمين وافتخاره بهم .

● ولثقافة الشاعر أثرها أيضا فى تشكيل خياله : انه على علم بالحقائق الفلكية ولكنه لا يصدق ما يقال عن النجوم ، وهو يعرف عقائد العرب القدامى فى النجوم فعطارد عندهم ملهم الشعراء والكتاب :

(لزعمت أنك أنت بكر عطارد)

وانظر إلى أسرار التعبير فى قوله : « لو كنت طرفا كنت غير مدافع » وفى قوله « خلت » وفى قوله « لزعمت » تصور شعوره الواقعى تجاه هذا التصور ، وكلمة « خلت » تصور تقديره لقيمة الكلمة ومقدار العلماء . وكلمة « لزعمت » تعبر عن استبعاده حصول مثل هذا التصور لانه تصور بعيد عن روح الاسلام .

● الموسيقى فى القصيدة وارتباطها بالتجربة والروح الاسلامية :

هذا النص من اول بحر الكامل ووزنه : متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن . متفاعلن .

وموسيقى هذا البحر تتفق مع الجوانب العاطفية المحتدمة داخل الانسان ، ومن خصائصه أن الحركات فيه تغلب على السكنات . والتجربة التى عبر عنها أبو تمام تعبر عن عاطفة حادة تجاه صديقه المسافر الى درجة ان كيانه قد اهتز ، وكاد أن يفقد السيطرة على نفسه لولا تأسيه بالدمع والصبر .

والتجربة تتحرك فى نفس الشاعر وتتحرك فى داخل صديقه وتتسم بالاتزان وبخاصة فى المقطع الثانى فموضوع القصيدة وتجربة الشاعر وانفعالاته مطابقة إلى حد ما لإيقاعها .

وإذا تأملت إيقاع الكلمات فى القصيدة فسترى ان الشاعر يكثر من حروف المد بصورة ملحوظة واقرأ البيت التالى :

لا تَبْعدَن ابــدا ولا تَبعُـدْ فمـــا   أخـلاقك الـخضر الربــا بأباعـــد

ان الشاعر يدعو له بعدم الهلاك وعدم البعد ، والحروف نفسها تعبر عن هذا ، فحرف المد الشائع فى أغلب كلمات البيت يعطى لايقاع البيت هدوءا وبطئا ـ وكأن الشاعر بهذا الايقاع البطىء يطلب من صديقه صدم السفر .

وعاطفة الصداقة عاطفة جليلة ولذلك تحس بفخامة الموسيقى وجلال اللفظ فى هذا النص فالايقاع ليس راقصا وانما ينساب كالموج الهادىء المفعم بالأسرار المهيبة وهذه الفخامة الموسيقية التى تبرز جلال الالفاظ عند ابن تمام لا شك انه قد تأثر فيها بالجملة القرآنية وعام التجويد وفى الإنشاد .

ويقول د : عبد العزيز الدسوقى[1] ان أبا تمام كان يخط سطور التقاليد الجمالية الجديدة ، والحساسية الفنية التى اشاعتها التقاليد الاسلامية فى عالم الأدب والفن . فموسيقى الجملة القرآنية احدثت أثرأ بعيدا فى نفوس هؤلاء الذين تشربوا هذه التقاليد بعد مضى هذا الوقت الطويل والمرامى البعيدة والمعانى العميقة التى اشتمل عليها القرآن الكريم أثرت فى عقول هؤلاء وقلوبهم وأذواقهم . فانعكست بعد فترة من الزمان تقاليد جمالية جديدة فى أشعارهم » .

---

(١) انظر مجلة الثقافة ، أكتوبر ١٩٨١ ، مقال قضايا وملاحظات ، ص٤٣ .

وفى القافية نرى الشاعر يستخدم حرف المد « الألف » ليكسب الايقاع بطئا يومىء إلى حالة الحزن المترسبة فى ذاته . واختار الدال المكسورة لأن الكسرة توحى بالانكسار . فالضمة تعطى الفخامة ، والفتحة تعطى الاستعلاء ، اما الكسرة ففيها انكسار وألم ، وهل هناك ألم أمر من ألم الوداع ، وحرقة السفر ، ورفاق الصدق « وقالوا عن الدال انها تعبر عن صوت العاشق الذى صار دالا من شدة الحزن » .

أما علماء الاصوات فيذكرون أنها صوت أسنان لثوى . انفجارى . مجهود يتذبذب معها الوتران الصوتيان وهذا يومىء الى هزة الشوق ورعشة الفراق .

وهى من أصوات « القلقلة » لأنها تحتاج الى تحريك .

والملاحظ أنها لم تقف عند حد القافية ، وانما دارت فى الابيات بطريقة تلقائية تؤكد ان لها ضرورة صوتية فى بناء القصيدة ابتداء من التصريع إلى الترديد »(١)

ولو احصينا حرف الدال فى القصيدة لوجدناه يتكرر أربعا وأربعين مرة . ولا يخلو بيت واحد منها ويتكرر فى بعض الأبيات أربع مرات .

من ملامـــح

● تطور النثر فى العصر العباسى الاول

تطور النثر فى العصر العباسى الأول تطورا ملحوظا ، وذلك بسبب امتزاج الثقافات المتعددة . حيث تلاقت الثقافة العربية بالثقافة اليونانية والهندية والرومانية والفارسية وأثمر هذا التلاقى تحولا ملموسا فى صورة النثر العربى رؤية وأداء . وكانت الثقافة الفارسية صاحبة النفوذ الاقوى فى ذلك التأثير حيث وضع بذور هذا التأثر عبد الحميد الكاتب فى العصر الأموى ، وهو فارسى الاصل وكانت أهم خصائص طريقته فى الكتابة . إطالة الرسائل وترتيب المعانى ، وربطها بعضها ببعض ، والميل إلى المزاوجة ، وكثرة المترادفات ، وتخير الألفاظ . وقد رفع عبد الله ابن المقفع لواء النثر فى العصر العباسى تأثرا منه بعبد الحميد الكاتب فقد كانا صديقين ويروى أن عبد الحميد الكاتب طلب ليقتل وهو معه : « يقول الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فيقول كل واحد منهما « أنا » خوفا على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال : ترفقوا فان فى « علامات » ووكلوا بنا بعضكم ، ويمضى بعض يذكر تلك العلاقات ففعل ذلك »[١] .

وابن المقفع ربما فاق عبد الحميد الكاتب فى سعة ثقافته وكثرة نتاجه وتعرضه لضرب المثل الأعلى لكثير من الشئون الاجتماعية كالسلطان والقضاء والصداقة ، وربما كان أسلوبه أميل الى الايجاز من صديقه عبد الحميد وأقرب الى القصد فى السجع والبديع ، وربما أداه ذلك الى الغموض احيانا وهو لسعة ثقافته يملأ أقواله بالحكم المأثورة والأمثال السائرة وهو أكثر ميلا الى التقسيم المنطقى فى التعبير[١] .

وتطور النثر لم يقتصر على الأسلوب بل تعدى ذلك إلى الموضوعات حيث تنوعت ورأينا النثر العلمى ، والنثر الفلسفى ، والنثر التاريخى والنثر الادبى .

---

(١) من كتاب « ضحى الاسلام » لاحمد أمين ، ص١٩٧ ، نقلا عن كتاب الجهشيارى ، ص ٧٩ .

وقد تأثر النثر فى الانواع السابقة بالثقافات الأجنبية ويظهر هذا التأثر فى نشاط ابن المقفع المتمثل فى ترجمته لكتاب « كليلة ودمنة » ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونظمهم فى السياسة والحكم ولم يقف النثر العربى عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التى يقف النثر العربى عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التى جاءته من لدن الاجانب ، فقد أنيرت العبقرية العربية فى هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشعرية وهو وضع كان واسع الاثر فى تمهيد اللغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محددة الالفاظ والاصطلاحات التى ترسم المعانى رسما دقيقا وقد مضت هذه اللغة تركض ركضا لا فى مجال العلوم الاسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل ايضا فى مجال العلوم الطبيعية والكونية فاذا لنا علماء كيماويون ورياضيون مختلفون لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

ومن أهم كتاب هذا العصر :

ابن المقفع ، سهل بن هارون ، الحسن بن سهل ، عصر بن مسعده ، احمد بن يوسف بن صبيح ، محمد بن عبد الملك بن ايان بن حمزة وشهرته « ابن الزيات » لان اباه كان يتاجر فى الزيت .

واهم انواع النثر هى :

- النثر العلمى
- النثر الفلسفى
- النثر التاريخى
- النثر الادبى
- الرسائل الاخوانية والادبية .
- الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات .
- الخطب والوعز والقصص .
- المناظرات

التعريف بالكاتب :

★ نسبه ونشأته :

اسمه روزبة بن داذويه ـ من أصل فارسى ، كان أبوه من قرية ايرانية تسمى « جور » نزل البصرة وظل على دينه محبوسيا مانويا ، غير أنه استعرب سريعا لاختلاطه بمواليه آل الاهتم التميميين ، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة ولم يلبث ان عمل فى دواوين الخراج للحجاج وظهرت عليه خيانة فى أموال الدولة . فضربه الحجاج ضربا مبرحا حتى تقفعت « يبست » يده فسمى من حينئذ « المقفع » ولم يسلم بل مات على دينه[1] وهو مذهب الزرادشتيه .

ونشأ ابن المقفع كأبيه زرادشتيا وتقلد الكتابة لكثيرين ، فكتب ليزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان يزيد واليا على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية ، ثم كتب لأخيه داود بن عمر بن هبيرة ، ثم اتصل بعيسى بن على بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور ، وكان ـ الى هذا العهد ـ لا يزال مجوسيا ـ فأسلم على يديه ، وكتب له ، ثم قتل لتشدده على ما يقول كثير من المؤرخين ـ فى كتابه صيغة الامان التى وضعها ابن المقفع ليوقع عليها ابو جعفر المنصور امانا لعبد الله بن على فأفرط ابن المقفع فى الاحتياط .

، حتى لا يجد المنصور فيها منفذا للاخلال بعهده ، فغاظ المنصور ذلك ، فأوعز بقتله ، فى سنة ١٤٢ هـ أو (١٤٣ هـ ولم يثبت تاريخ مولده وقيل ولد سنة ١٠٦ هـ

ثقافته وفنه :

يصف الجاحظ ثقافة ابن المقفع بعد تحليل شخصيته وسلوكياته فيقول ثم هو واسع الاطلاع مضطلع باللسانين العربى والفارسى نقل خير ما رأى باللغة الفهلوية إلى اللسان العربى وهو عزيز المعانى اذا كتب ، ليست كتابته جوفاء - ككثير من كتابات الناس يمعن فى اختيار المعنى ، ثم يمعن فى اختيار اللفظ له .

ويقول جعفر بن يحيى : « عبد الحميد اصل ، وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمر ، واحمد بن يوسف زاهر[1] ولابن المقفع اثار أدبية منها : الادب الصغير ، الادب الكبير أو اليتيمه ، رسالة الصحابة ، كليلة ودمنة .

---

(١) رسائل البلغاء نقلا عن «ضحى الاسلام» ص ١٩٨ م

وكتاب الادب الصغير الذى اخترنا منه هذا النص «عبارة عن كلمات حكيمة فى الاخلاق ، وجمل موجزة أشبه بالامثال ، وهى خطوات نتيجة تجارب فقد صيغت فى ايجاز .

ونلاحظ عدم الارتباط بين هذه الحكم . وعدم اتخاذ المنهج فى تأليفها ، فهو يجمع بين أشتات من الحكم الناشئة عن تجارب مختلفة .

وكانت الثقافة الفارسية عنصرا قوى الأثر فى ذلك الوقت فى الشعر . فى الأدب وفى الحكم ، فى القصص ، وفى النظم للحكم ، وفى دعاة الاصلاح فى رجال اللهو والغناء .

وكان ابن المقفع من انصار هذه الثقافة ومن دعاتها بدافع التعصب لقوميته الفارسية حينا والميل الى الاصلاح احيانا ، ونشأ صراع بين هذه الثقافة وبين التقاليد العربية ، وتصدى العرب لكل تيار ينحرف بهم عن دينهم أو يشكك فى عقيدتهم .

والقارىء لكتب ابن المقفع وتاريخه . يخرج منه على أديب تثقف ثقافة واسعة فارسية ، وعربية ، ينزع نزعة قوية لقومه من الفرس ، يحيى أمته بنشر آدابها وسياستها وتاريخها – ثم هو نبيل شريف النفس – يسترعى بنبله وأدبه انظار الناس .

وفى مقدمة « الأدب الصغير » يقول :

قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا ، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية ابصارها واحياء للتفكير ، واقامة للتدبير ، ودليل على محامد الامور ومكارم الاخلاق .

(السلوك الانسانى فى ظل القيم الاسلامية)

وصايا وحكم ـ لعبد الله بن المقفع

(النـــص)

على العاقل أن لا يستصغر شيئا من الخطا فى الرأى والزلل[١] فى العلم والإغفل[٢] فى الامور .

ان من استصغر الصغير أوشك ان يجمع اليه صغيرا وصغيرا فاذا الصغير كبير ، وانما هى ثلم[٣] يثلمها[٤] ، العجز والتضييع ، فاذا لم تسد اوشكت ان تنفجر بما لا يطاق .

كلام اللبيب وان كان نذرا[٥] أدب عظيم ، ومقارفة[٦] المأثم وان كان محتقراً مصيبة جليلة .

لا يمنعك صغر شأن امرىء من اجتباء[٧] ما رأيت من رأيه صوابا واصطفاء[٨] ما رأيت من أخلاقه كريما . فاذا اللؤلؤة الفائقة[٩] لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها .

أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتى اليهم إلا ما ترضى أن يؤتى اليك .

حق على العاقل أن يتخذ مرآتين فينظر من احداهما فى مساوىء نفسه فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها . وينظر من الاخرى فى محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها .

عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى[١] والهوى آفة[٢] العفاف .

---

(١) الزلل : الخطأ وفعله زل يزل فى منطقه أو فعله .
(٢) الغفلة : غيبه الشىء عن بال الانسان وعدم تذكره له .
(٣) ، (٤) ثلم : جمع ثلمه وهى الخلل وشمت الاناء ثلما كسرته .
(٥) نذرا : قليل ، ويقال شىء نزر وتزور ونزير .
(٦) مقارفه المأثم : فعله .
(٧) اجتباء : اصطفاء .
(٨) اصطفاء : اختيار : والصفى ما يصفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة .
(٩) الفائقة : المتفوقة : يقال فاق الرجل أصحابه : علاهم بالشرف .
(١) الهوى : ميل النفس وانحرافها نحو الشىء ويستعمل الهوى فى الميل المذموم فيقال اتبع هواه وهو من أهل الاهواء .
(٢) افة : المراد بها : المرض .

من أشد عيوب الانسان خفاء عيوبه عليه فانه من خفى عيبه عليه خفيت عليه محاسن غيره . ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه[١] الذى لا يعرف ولن ينال محاسن غيره التى لا يبصرها ابدا .

لا يتم حسن الكلام الا بحسن العمل كالمريض الذى قد علم دواء نفسه فاذا هو لم يتداو به لم يغنه علمه .

والرجل ذو المروءة[٢] فقد يكرم على غير مال كالاسد الذى يهاب وان كان عقيرا[٣] ، والرجل الذى لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وان طوق وخلخل .

---

(١) لن يقلع عن عيبه : لن يتركه « يقال اقلع عن الامر اقلاعا أى تركه .
(٢) المروءة : اداب نفسانية تحمل مراعاتها الانسان على الوقوف عند محسان الاخلاق وجميل العادات
(٣) عقيرا : جريحا .

العرض العام :

بعد قراءة هذا النص قراءة واعية ستجد انه لا تنتظمه فكرة واحدة ، ولكنه عدة خطوات عقلية تتوزع بين الوصية والحكمة استوحاها الكاتب من تجاربة وثقافته المتعددة الروافد ، فهى تنهل من منابع الثقافة الاسلامية والفارسية واليونانية والهندية وهى تتكون من تسع خطوات :

الاولـــى : ارشاد العاقل إلى عدم التهاون فى أى أمر يسوء اليه فى علمه او فى نفسه او فى امر يتعلق بحياته لان من استهان بالصغائر تهون عليه الكبائر .

الثانيـــة : التنويه بقيمة منطق الانسان العاقل الفطن فمنطقه عظيم الاثر وان كان قليلا ، والتحذير من ارتكاب الأثام فالمأثم مهما قل شأنه مصيبة فادحة .

الثالثـــة : التعمق فى دراسة أخلاق الناس وتقدير ما ترشد اليه هذه الاخلاق من قيم معنوية لا قيم مادية والاستفادة من الرأى الصائب مهما قل شأن صاحبه .

الرابعـــة : معاملة الناس بالحسنى تعطر سيرة الانسان فى أفواه الناس ، ويجب أن لا يسوء الانسان إلى احد لانه لا يحب أن يسوء أحد اليه .

الخامسة : على الانسان أن يحاسب نفسه ، وينظر فى مساوئه ويصلح ما استطاع منها ولا يتكبر على الناس وعليه أن يقتدى بمحاسن الغير ويأخذ بقدر استطاعته منها .

السادسة : ارتكاب الخطأ عن علم مرض نفسى يشكك فى نزاهة الانسان وعفته .

السابعـــة : من أكثر عيوب الانسان عدم اكتشافه لعيوبه وخفاء محاسن غيره عنه ويؤديه ذلك الى الابقاء على عيوبه ورفض الاقتداء باخلاق غيره .

الثامنـــة : لا بد أن يصدق القول العمل . والا فالكلام وحده لا يجدى .

التاسعـــة : التنويه بمروءة الانسان وشرفه فالمروءة تضفى على الانسان مهابة وجلالا حتى وان كان مجردا من المال . كالاسد يهاب ولو كان جريحا .

والانسان الشره المجرد من المروءة لا يحترمه أحد كالكلب لا يهاب ولو كان مزينا بالاطواق والخلاخيل .

وللثقافة الكاتب الفارسية واليونانية أثر فى كتابته وصياغته فحكماء الفرس كانوا يسوقون أمثال هذه الحكم . وهو فى كثير من كتاباته يقول « احفظ قول الحكيم » وقالت الحكماء ، وهو يقصد « حكماء الفرس » .

- وللثقافة الإسلامية أثر فى حكم الكاتب وأفكاره وهى تأتى فى صورة استيحاء للمعنى الاسلامى .

ففى الفقرة الثانية يستوحى حكمته « كلام اللبيب وان كان نزرا أدب عظيم » استيحاء عكسيا من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فى وصاياه لمعاذ بن جبل حينما قال له « كف عليك هذا » وامسك بلسانه . فقال : أإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله : قال : وهل يكب الناس فى النار على وجههم إلا حصائد السنتهم .

وفى الوصية الثالثة : لا يمنعنك صغر شأن امرىء .... يتلاقى مع الغرض من الآية الكريمة : (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) . سورة الحجرات اية : ١٣ .

ومع قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : (ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ، وفى الفكرة الثامنة والتاسعة يتلاقى مع المعنى القرآنى الرائع .

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون »[٢] (سورة الصف)

كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون [٣] (سورة الصف)

- وهذه الحكم والوصايا مستمدة من التجارب الدنيوية والثقافات المختلفة برغم اتفاقها مع المعانى الاسلامية . فالدين الاسلامى يمثل أثرا من الآثار فى تكوينها ولا يمثل تيارا عاما فى نسيجها او موجا يغمرها كما تشعر بذلك فى كتابات الحسن البصرى وخطبه وتلمس ذلك فى أقوال سيدنا على رضى الله عنه فى كتاب « نهج البلاغة » .

★ ★ ★

الالفاظ وبناء العبارة :

اعتمد الكاتب فى حكمه ووصاياه على الالفاظ السهلة التى تفيض بالمعانى العميقة ، وقد كان هذا منهجه الذى أبان عنه فى قوله لبعض الادباء « اياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة » . فان ذلك هو العى الاكبر وقد زاد الامر وضوحا حين وصف البلاغة بانها « هى التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

والألفاظ عنده بقدر المعانى . فليست فيها بهرجة لغوية أو زينة لفظية . وتخلو من الحشو . والتكرار ، والاستطراد والمترادفات والمحسنات البديعية المتكلفة ، ومع ذلك فهى عربية فصيحة بعيدة عن الابتذال والحشو والتكلف ، والتعقيد اللفظى ، ونلاحظ أن الألفاظ الصعبة التى جاءت فى هذا النص ليست موغلة فى الصعوبة .

وربما يرجع ذلك إلى أن الكاتب لم يخالط أهل البادية ولم يتلق اللغة تلقيا مباشرا منهم لانه ليس عربيا بدويا .

وكان من اوائل من بثوا الاسلوب الكتابى العباسى المولد وهو اسلوب يقوم على الوضوح . وان تشف الالفاظ عن معانيها وان تخلو من كل غريب وحشى ومبتذل عامى .

واما العبارة : فهى مبنية بناء فنيا على الاسس الفنية التالية :

أولا : المزاوجة والتقسيم : وذلك فى مثل قوله :

« كلام اللبيب وان كان نذرا أدب عظيم »

« ومقارفة المأثم وان كان محتقرا مصيبة جليلة »

فالعبارتان اسميتان .

وتبدآن بالمبتدأ المضاف الى ما بعده « كلام اللبيب » مقارفة المائم .

وتختمان بالخبر الموصوف « أدب عظيم » - مصيبة جليلة - وبين المبتدأ والخبر فى كلتا الجملتين جملة شرطية - وان كان نذرا - وان كان محتقرا .

واذا تأملت بناء العبارة فى الوصية الثالثة :

« لا يمنعنك صغر شأن امرىء من اجتباء ما رأيت من رأيه صوابا »

« واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريما »

فستجد انها متناسقة كبنائها فى الحكمة الثانية .

فالجملتان تبدآن بالمصدر المجرور ، ويليه الفعل الماضى المسبوق بما الموصولة ويلى الفعل الاسم المجرور بمن وتختم كلتا الجملتين بالمفعول به

« صوابا .. كريما » وفى الوصية الخامسة تبدو هذه الظاهرة الفنية فى وضوح تام « حق على العاقل .... »

ثانيــا : اسلوب الشرط والجواب :

وهذا يدل على التفكير المنطقى المبنى على المقدمات السليمة التى تؤدى الى نتائج صحيحة ويتجسم هذا الاداء التعبيرى فى هذه العبارات .

★ ان من استصغر أوشك أن يجمع إليه صغيرا وصغيرا .

★ اذا لم تسد أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق .

★ فانه من خفى عيبه عليه خفيت عليه محاسن غيره .

★ ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذى لا يعرف .

ثالثــا : البعد عن التكرار :

والبعد عن أساليب الاستفهام والنداء وغيرها من انواع الاسلوب الانشائى لأن الوصايا والحكم غالبا ما تصاغ فى صيغة لاسلوب الخبرى ، وقد يأتى النفى أو الامر فى خلال الوصايا والحكم .

والكاتب فى هذه الوصايا لا يعبر عن تجربة خاصة ، ولا يتحدث فى موضوع محدد وانما يسوق أفكارا عامة فى موضوعات عامة لا مجال فيها للادوات الفنية التى تعبر عن الشوق واللهفة والتأكيد .

رابعا : الاعتماد على التشبيه الضمنى فى التدليل على أحكامه وفى ذلك ربط بين العقل والخيال . وذلك فى مثل قوله : « فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها » وهو بهذه العبارة يدلل على ان العمل الجيد او القول الفصل ، او المعنى العميق او الاختراع النادر الصادر عن انسان ضعيف الشأن ليس له ما يعضده من المركز الاجتماعى او المادى او الوظيفى - لا يصبح قليل القيمة لمجرد صدوره عن هذا الانسان الضعيف .

خامسا : الاعتماد على التشبيه المباشر فى توضيح الفكرة فى مثل قوله :

لا يتم حسن الكلام الا بحسن العمل .

كالمريض الذى علم دواء نفسه .

فاذا هو لم يتداو به لم يغنه علمه .

وفى مثل قوله :
والرجل نو المروءة قد يكرم على غير مال كالاسد الذى يهاب وان كان عقيرا والرجل الذى لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وان طوق وخلخل .

● ● ● وابن المقفع بهذه الوصايا وغيرها يشارك فى إرساء قواعد السلوك الانسانى القائمة على اسس العدالة والحرية والحق والمساواة وهى اسس تلتقى مع قيم الإسلام ومنهجه وموقفه من الكون والانسان .

● ● ● وبعد فأحمد الله سبحانه على توفيقه ، وأمل أن أكون بهذه النماذج المضيئة فى آفاق تراثنا العربى الاسلامى . قد قدمت جهدا نافعا ، واقتحمت ميدانا فسيحا ، ينتظر جهد الدارسين بما يملكون من ادوات البحث وطاقات الابداع .
وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب .

□ د . صابر عبد الدايم □

* * *

صدمة الحزن ومواساة الطبيعة
رؤية الشاعر للعلاقة الزوجية واحساسه الكونى بها
فلسفة الجمال فى الاسلام .
من ثنائية الحب والموت تشرق فلسفة الحياة .
(ب) البعد الجمالى وكشفه عن معالم التجربة
انتصار الحب على الموت والصياغة اللغوية
الظاهرة الصويتة تعمل الاحساس بالفقد
تشكيل الحزن فى صور (الدعاء ـ الواقع ـ الحسرة ـ الرمز الكونى)
الصورة الشعرية صدى للبيئة ـ الجمال الانثور واحساس الطبيعة به ، الفكرة الزمنية وانتصار الحب .
الرؤية الاسلامية وأثرها فى تشكيل التجربة .

القســم الثانى

(أ) النص الخامس « فى مدح المهدى » لمروان بن أبى حفصة . ٩٦ ـ ١١٢
الشاعر : نسبه ونشأته وفنه .
التحليل اللغوى للنص .
القراءة الموضوعية للنص .
القراءة الجمالية للنص .
القراءة النقدية للنص .
(الافكار ـ التجربة والعاطفة ـ أثر البيئة العربية والاسلامية ـ الموسيقى فى القصيدة وارتباطها بالتجربة والروح الاسلامية) .

(ب) النص السادس « فى وداع صديق » . ١١٣ ـ ١٢٨
الشاعر وفنه .
التحليل اللغوى للنص .
القراءة الموضوعية .
القراءة الجمالية .
القراءة النقدية (الافكار ـ القيم الاسلامية ـ أثر البيئة فى الخيال ، الموسيقى فى القصيدة وارتباطها بالتجربة الاسلامية) .

(جـ) تطور النثر فى العصر العباسى الاول . ١٢٩ ـ ١٤٤
النص السابع ـ وصايا وحكم لعبد الله بن المقفع
(الكاتب : نسبه ونشأته ـ ثقافته وفنه) .
التحليل اللغوى والموضوعى والفنى .

المصادر والمراجع :

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى - د . أحمد الحوفى .

(٢) إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم - الامام أبو السعود .
(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة - ابن الأثير .
(٤) الاشتقاق - ابن دريد .
(٥) الأغانى « جـ ١ ، جـ ٢ » - أبو الفرج الأصفهانى .
(٦) البداية والنهاية - ابن كثير .
(٧) البيان والتبيين - الجاحظ .
(٨) تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان .
(٩) تاريخ الطبرى - ابن جرير الطبرى .
(١٠) التطور والتجديد فى العصر الأموى - د . شوقى ضيف .
(١١) تهذيب الآثار وتفصيل معانى الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار .

ابن جرير الطبرى ، ت د . ناصر بن سعد الرشيد .

(١٢) ديوان « أبو تمام » - حبيب بن أوس الطائى .
(١٣) ديوان « جرير » - جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى .
(١٤) ديوان « عمر بن أبى ربيعة » - عمر بن أبى ربيعة .
(١٥) ديوان « الفرزدق » - همام بن غالب بن صعصعة .
(١٦) ديوان « مروان بن أبى ربيعة » - مروان بن أبى حفصة .
(١٧) شاعر الغزل « عمر بن أبى ربيعة » - عباس محمود العقاد .
(١٨) الشعر والشعراء - ابن قتيبه .
(١٩) شعر الفرزدق بين أصداء الجاهلية وصوت الاسلام — د . محمد كريم
(٢٠) ضحى الاسلام - د . أحمد أمين .
(٢١) طبقات الشعراء - عبد الله بن المعتز .
(٢٢) الطبقات الكبرى - ابن سعد .

(٢٣) العصر العباسى الاول - د . شوقى ضيف .
(٢٤) عيون الأخبار - ابن قتيبه .
(٢٥) العمدة - ابن رشيق القيراوني .
(٢٦) الفرق الاسلامية فى الشعر الأموى - د . النعمان القاضى .
(٢٧) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - د . شوقى ضيف .
(٢٨) الكامل - لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد .
(٢٩) لسان العرب - ابن منظور
(٣٠) ـ مجلة الثقافة عدد اكتوبر ١٩٨٦م - القاهرة - د . عبد العزيز الدسوقى .
(٣١) مجلة الشعر - عدد يوليو ١٩٧٦ - القاهرة - د . عبده بدوى .
(٣٢) مختار الصحاح - محمد بن ابى بكر بن القادر الرازى .
(٣٣) من أسرار اللغة - د . ابراهيم أنيس .
(٣٤) المدائح النبوية د . زكى مبارك .
(٣٥) المنجد فى اللغة والاعلام - ط ٢٥ - بيروت - د . ت .
(٣٦) النص الشعرى - د . عبده بدوى .

★ ★ ★

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٩٨٤/٢٧٥٤

مطابع جامعة الزقازيق